PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY
32101 012616270

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

This book is due on the latest date stamped below. Please return or renew by this date.

F. Makhlūf

الثورة

رواية اجتماعية قومية

بقلم

فريد مخلوف

وضع مقدمتها

الدكتور عبد الرحمن الكيالي

الطبعة الاولى

جميع الحقوق محفوظة

عني بنشره : عبد السلام بديع

ثمن النسخة : فرنكان

دمشق * مطبعة الاعتدال

اهداء الكتاب

الى الشاب الحر ، الأنوف ، المناضل ، القوي بفكرته ، الكبير بعلمه ، العظيم في جهاده

(Arab)
PJ7846
.A4946T52

الدكتور سيف الدين المأمون

مراقب الشباب الوطني العام ، ومثله الاعلى ،

أرفع هذا الكتاب .

المخلص

فريد مخلوف

كلمـــــة بريئة

مازال ادبنا القومي الحاضر ، في حاجة الى كتب عربية سهلة القراءة سهلة الاطلاع ، سلسة الاسلوب ، رائعة الخيال ، جذابة الصور ، بارزة الافكار تنبه شعور الشباب الوطني ، وتـذكي فؤادهم ، وتثير روحهم ، وتنشط هممهم لتمجيد تاريخهم ، وحب بـلادهم ، والاعتزاز بلسانهم ، واخلاق ابائهم ، مما هو عامل قوي في النهضة الفكرية ، والادبية والسياسية واساس متين في بناء الاخلاق التي تقوم على التضحية ، والواجب ، وقول الحق ، والصراحة ، وايجاد المثل العليا للكرامة والعزة والنبالة .

واذا كانت الكتب الحاضرة الموضوعة لدى القراء ، سواء من نوع الروايات ، او الأقاصيص قـد خطت شوطاً لا بأس به في الأدب القومي ، والعربية ، فانها بمجموعها لم تسد الحاجة المطلوبة لشرح معنى الحرية ، والقومية ، والمبادىء المذكورة اعلاه ، لأن المترجم منها ، فيه ما لا يتفق مع الذوق العربي ، والآداب الشرقية ، وفيه مايحسن ان

يستفاد منه لغة ومعنى ، ولكن ليس فيه ما يشفي غليل الدور التكويني ، او يتلاءم مع الدور الانتقالي لذي نحن فيه ، والمعرب وان فاقت مزاياه النوع المتقدم ، لكنه قد يخلو من الروح الحية التي تنبعث من روح

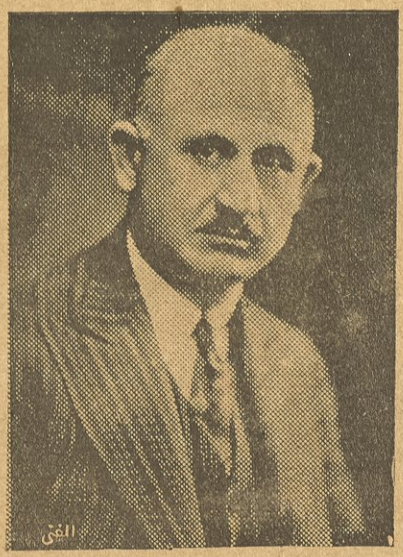

الدكتور عبد الرحمن الكيالي

المؤلف ، ونفسيه ، او من الصور التي يرسمها لابطاله ، او لنفسه ، او لحوادثه ، والمؤلف بذاته فيه التافه وفيه الاولي ، وفيه القليل من الراقي الذي يصح للدراسة والتعميم والنشر ؛ وعلى كل فالمؤلفات التي هي من

وضع ابناء الضاد ومستمدة من خلقهم ، وروحهم ، وذهنهم ، وطباعهم ، وحاجاتهم ، ومحيطهم ، وتاريخهم ، وحياتهم ، ومن اشخاص بلادهم ، وحوادث وطنهم وامتهم هي خير وابقى .

ومن هذا القبيل الذي يحسن تقديمه للقراء ، ككتاب صادر عن شاب هو في مقتبل العمر ، ينظر للمستقبل بعين بعيدة ، ووجه باسم ، ويخلص لبلاده ، وامته ، ويمجد لغته ، وآباءه ، كتاب (الثورة) الذي يعد بحق اثراً حياً لما يخالج قلب صاحبه من حب للحرية ، والاستقلال ، واستعداد للتضحية والدفاع ، وتمجيد للعرب والعربية .

وبعد فان كتاب الثورة للاستاذ « فريد مخلوف » ابطاله ثلاثة : شيخ علمته السنون قيمة الوطن والحرية ، ومعنى البطولة والتضحية ، وواجب الدفاع عن العرض والكرامة ، وشاب علمته الثقافة العلمية ، ثقافة العصر الحاضر ، معنى الفتوة والجرأة ، والوطنية والاقدام ، وافهمته حقيقة الحياة ، والحب ، والانسانية وزودته بالصراحة ، والحق ، والكفاح ، وفتاة اجنبية غريبة ، اعطتها الطبيعة كل ماتحتاجه من جمال ، وذكاء ، وشعور ، وعاطفة ووفاء ، وقد رمز مؤلفه بالشيخ الى ماضي امته النبيل وما يحويه ، وبالفتى الى حاضر قومه ، وما يجب عليهم ، وبالفتاة الى

العاطفة التي تتنازع شباب اليوم ؛ وهم ينظرون الى تاريخهم ، واجدادهم وما كان لهم من سؤدد ومزية ، وفضل ، وما ظهر بينهم من قادة السيف وابطال الحرية ، ورجال الفكر ؛ ويقابلونهم بما يرونه في انفسهم ، وفي المدنية الغربية التي تحيط بهم ، وما يتوجب عليهم نحو امتهم ، وبلادهم وذاتهم ، ونحو المحتلين (المنتدبين) الذي قدر لهم ان يكونوا محتلين البلاد واصحاب السلطان .

اما حوادثه فهي خيالية اقرب للحقيقة من غيرها ، لا تكلف فيها ولا تصنع ولا اطالة ، بل فيها الاختصار ، واللذة ، والحياة ؛ ومما يجعل الكتاب ذا فائدة لا تعادل ، ان المؤلف قد اتى في الحوادث ، والظروف التي تخيلها ، وجعلته يتعرف الى الشيخ ، والفتاة الجميلة « ايلين » بصور بديعة ترسم حبه للطبيعة ، وعواطفه الثائرة ، وتبين كوامن نفسه العميقة وشواعره الحساسة ، ويلونها بالوان من العبارات المتقدة الانيقة ، تدل على مقدرته للتعبير عما يخالج فؤاده ، وتتحسس به عواطفه .

وليت شباب اليوم الذين يسيل في عروقهم دم الفتوة الحار ، والذين تثقفوا بروح العصر والعلم ، يتقدمون كالاستاذ فريد مخلوف لتأليف امثال هذه الكتب المفيدة ترجمان تربيتهم ؛ ودليل وطنيتهم ، وضور

عواطفهم ، فيسدون الحاجة التي يتطلبها ادبنا القومي الحاضر ويغذون افراد امتهم ذكوراً واناثاً بخير مايفيدهم ويقويهم والسلام .

حلب في ١٥ ايار سنة ١٩٣٤

الدكتور عبد الرحمن الكيالي

كلمة المؤلف

الفت هذا الكتاب قبل سنتين في مدينة حلب المحبوبة ، وقد اخرتني ظروف الحياة وقتئذ عن طبعه . ثم مر وقت رأيت بعده ان الامة لم تعد بحاجة الى من ينبه شعورها — وهي متنبهة — وان افضل ما افعله ان ادفن هذا الكتاب في حفرة الاهمال والقي عليه تراباً كثيراً ...؟

غير اني لما رأيت استيقاظ النعرات الطائفية والجنسية في هذا الوقت ورأيت تلاعب المستثمرين المنافقين بابناء وطني ، ورقص المضللين والطامعين على قبور الشعب اللبناني ! واندفاع بعض ابناء لبنان وراء قومية « لبنانية » هي اشبه شيء بالانتحار — لما رأيت كل ذلك ، كان لزاماً علي ان اقذف بهذا الكتاب الذي يعبر تعبيراً صحيحاً عن عاطفة « عربية » متحررة صادرة عن كاتب لبناني عاجز اذا انكروا عليه كل شيء — !! — فلا يستطيعون ان ينكروا عليه اخلاصه ، وانعتاقه من القيود ، وانطلاقه الى افق واسع بعيد عن الانانية ...

ان الشباب العربي اللبناني المثقف لا يريد ان يغتر بالاضاليل .. وهو يرى ان لا حياة لجباله الا بالوحدة ، ويرى ان هذه الوحدة يجب ان تظللها الحريات الديموقراطية ، لانه لا يريد هذه الوحدة مساومة على مصالح

الشعب . وهو يرجو من رجال البلاد في المستقبل ان يفتحوا عهداً جديداً مملوءاً بالتسامح ، ومشبعاً بروح الديموقراطية الصحيحة ، حتى يقضوا على تردده ، — تردد الشباب — ويدفعوه مرة واحدة الى قلب المعركة ، بلا حذر ولا تخوف ...

وانا اعترف ان هذه الرواية قد جاءت متأخرة ، ولكن ، ليس كثيراً ... فاذا كنا قد خطونا الخطوة الاولى في سبيل التحرر فقد بقيت امامنا خطوات سنقطعها اذا عرفنا كيف نخرج من عزلتنا السياسية ، ونشترك مع بقية الامم في تقرير مصير الافراد والجماعات .

دمشق في ١ تشرين اول سنة ١٩٣٦

فريد مخلوف

الفصل الاول

- ١ -

كان الرجل الجبار المجاهد ، قد بلغ الثمانين من عمره ، فرجع الى بلدته بشراي(١) وبنى له بيتاً صغيراً منفرداً على كتف وادي قاديشا ، يقضي فيه البقية الباقية من حياته ، في عزلة تامة ؛

رآه البعض فقالوا ان هيئته تشبه هيئة كهنة الاصنام القدماء ، فكان يجلس كل مساء على شرفة منزله المطلة على الوادي يحدق في الافق ، ويراقب بعض القرويات اللواتي دهمهن الظلام ، فعدن من الحقول ، خائفات مسرعات .

وطالما رآه السراة صدفة ، يمشي وحيداً في سكون الليل ، ويتنقل على الهضبات والتلال والمنخفضات ، كأنما اضاع فيها املاً خداعاً ، يقطع الليالي في التفتيش عنه لا يكل ولا يمل .

اما القمر فلو استطاع لحدثك عنه احاديث مطربة غريبة ، فانه لم يعل الافق مرة ، الا اطل عليه قرب غدير ، او على ضفة بحيرة ، او وسط روض نضير ، يلقي على مسامع الليل المصغي همسات غير مفهومة ، ويكلم رفقاء خياله كلاماً شجياً كأنه سحر غامض .

وقد اوسعت وحدته مجالاً للظن والتخمين ، فكان الناس ينسجون

---

(١) — قرية مشهورة في شمالي لبنان .

حوله حقيقة الاقوال المختلفة المتباينة ، فمن قائل ان الجهاد قد اتعبه فجاء يستريح من العناء الماضي ، الى آخر يقول انه طرح آماله الماضية المعذبة فاتخذ مسكنه الجديد مكانا لتزهده ، وما بين هذا وذاك ، واحد يؤكد ان الكبر قد خبله ، فاعتزل الناس ، ليخفي ضعفه وخمود فكره ، وراء ستر من التكتم والوحدة .

اما انا فقد كنت اسمع هذه الاقوال دون ان اعيرها انتباها كبيرا لان الامور التي تشغل الناس ، لم تكن في الحقيقة ، تشغلني ، والظنون التي كانت تساورهم لم تكن يوما لتدور بخلدي ، وما ذلك عن كبرياء ولكنني نشأت بين قوم عظيمهم احمق والمستنير فيهم منبوذ محتقر .

لم اكن قد ادركت شيئا من اسرار الحياة ، بل اعترف باني كنت جاهلا اغتر بالظواهر ، فلا افهم من الامور سوى قشورها ، غير ان السماء قد وضعت في قلبي حب التفرد بآرائي ، فكنت ، وانا لاازال صغيرا ، اثق بنفسي ، واحتقر العظائم والامجاد .

في صبيحة يوم ، وقد صفا الجو ، ورق النسيم ، حملت كتابا من الكتب التي لم تكن تفارقني ، في اكثر ايام الصيف ، وذهبت وحدي ، اتجول في تلك الربوع الرائعة انشد فيها احلامي الضائعة ، واريح في سكينتها فؤادي المضطرب والمتعطش الى الحقيقة .

ولو ان لي صفاء فكري ، وخيالي الماضي لكنت اصف لك بعض المناظر الخلابة التي كنت اراها في طريقي ، والتي لا يخلو منها مكان في تلك الانحاء. اما اليوم فصرت اميل الى الاعتقاد ان المناظر والطبيعة نفسها لا تستحق كل هذا الاكتراث لنصفها ونجهد انفسنا للتعبير عن شعورنا نحوها.

ولكن لا بأس ان نعترف بأن الطبيعة كانت ولا تزال تحدثنا بلغة روحية ، عن اشياء كثيرة خافية عن العقل البشري ، وتوحي الى الانسان حب البساطة والتسامح والجمال. فالطبيعة والارض ، وجميع الاجرام والكواكب ليست سوى ادوات يسخرها الفكر ليحل بواسطتها قيود الغموض والكتمان ويبرز الى حيز الوجود والوضوح .

كنت احب الطبيعة في ذلك الوقت ولا ريب ان حبي اياها قد افادني وهذب اخلاقي تهذيبا ما كنت لاحصل عليه لو بقيت محصورا في سجن كرهي للطبيعة والنفور منها ، وسوف تبقى تلك المشاهد التي ملأت تصورات طفولتي وشبابي اثرا دائما في روحي يوحي الي اجمل التعابير واصدق الرسوم والصور .

قلت انني حملت كتابي وجعلت اسير في تلك الامكنة الوعرة المسالك ، تقودني الاحلام التائهة حتى وصلت الى نهر قاديشا الذي يجري هادرا في واديه الابدي فاتخذته لي رفيقا ، وتبعت مجرى مياهه المتدفقة

الى ان اشرفت على شلال قطع مسيري بغتة فتوقفت .

اجلت النظر حولي فاذا به يقع على مشهد من اروع المشاهد: غزالة تظهر فوق الافق خائفة مذعورة كانها تخشى ان تقلل اشعتها من جمال تلك الربوع وجبال جرداء تتشامخ نحو السماء بعظمة وجبروت كانها نفوس الابطال واودية غريبة العمق والانحدار تتمشى فيها السكينة وتخيم فوقها اجنحة الجلال المهيبة ونهر وسواقي تترنم وتنشد انشودة البقاء الخالدة وعصافير خفقت قلوبها للحب تغرد تغريدا قصيرا وتذهب مرفرفة في فضاء سحري رهيب . . .

الهتني هذه المشاهد المختلفة عن القراءة فذهبت افتش عن مكان مرتفع يمكنني اذا ما جلست على قمته ان ارى كل ما حولي وما كدت اصل الى المحل الذي انتقيته حتى رايت على مقربة مني شبحا ابيض جالسا فوق صخر عظيم لم اكد اتميزه حتى عرفت انه الشيخ .

لم يرق لي هذا المنظر لاني لم اكن احب المتزهدين وان حسبت نفسي منهم في ذلك الوقت لان الشعور الذي كان يدفعني الى الوحدة لم يكن شعورا طبيعيا راسخا في قلبي بل عارضا وقتيا بسيطا ولده نفوري من الناس الجهلاء الذي كنت اعيش بينهم فلا اجد عندهم معرفة ولا كمالا .

ولكنني قلت في نفسي : « ان النظر الى هذا الشيخ والتقرب اليه لايخلوان من لذة قوية هي لذة الاستطلاع ،فلعله من المفيد ان اغتنم هذه السانحة فاذهب اليه واحدثه فاسمع منه ما يتمنى الكثيرون ان يسمعوا بعضه !

ذهبت الى الشيخ هادئا ولم اعرف كيف يجب ان ابدأ الحديث معه حتى خرجت التحية من فمي فرأيته يبتسم لي بوداعة غيرت فكري نحوه في برهة قصيرة وجعلتني احترمه واتهيبه كأن وراء تلك الابتسامة البريئة التي ارتسمت على شفته معرفة وحكمة كنت اتمنى لو اهب حياتي لاحصل على بعضها .

وقبل ان اقترب منه للسلام عليه وجدت فرصة لافحص ملامحه الغريبة فاذا به مشرق الوجه ابيض البشرة شائب اللحية والرأس ، ضعيف الوجه تكاد تبرز منه العظام اسود العينين كبيرهما يشع فيهما الذكاء وتختلج وراءهما الحياة .

وكان في مجموع هيئته مايوحي القوة والشدة والعزة ، كانه يحوي في ملامحه وتقاطيع وجهه سر قلبه الكبير وروحه المتمردة القوية .وقد كان طويل القامة ، رقيقا يرتدي ثوبا ابيض يزيده مهابة وجلالا ، ويحمل عصا غليظة تضيف شيئا الى قوة عزيمته ، وصلابة طلعته .

وما كدت انتهي من فحص هيئته حتى بادرني الكلام قائلا : « ان حظك لجيد فلقد اتيتني في وقت انا فيه هادىء الفكر صافي الذهن لا اتضجر من الناس ولا آنف محادثتهم اما اذا كنت تمر بي صدفة فاتمنى لك كل سرور وبهجة في نزهتك هذه »

قلت « لست بقاصد ولا متنزه ولكنني فتى تقوده الاحلام الى حيث لايدري فاذا كنت تراني هنا فلأن الاقدار شاءت ان اجتمع قليلا برجل حكيم مثلك خبر الايام والليالي ، فجاء يقضي بقية حياته في راحة وسكينة. بيد انني اذا كنت مغتبطا بسماع اقوالك ومشاهدتك فانا لا احب المتوحدين الذين يهربون من متاعب الحياة التي يقتحمها الابطال ليلجأوا الى راحة الوحدة و كسل الاحلام.

انا اعرف اننا لم نوجد عبثا في هذه الحياة وان علينا واجبا يجب ان نتممه وغاية يجب ان نسعى وراءها مادمنا نسير على هذه الارض. غير انني لا اعرف هذه الغاية وذلك الواجب الان وهذا ماسوف اجتهد لكي اعرفه في المستقبل .

اما انت فلست الومك ، ولعل من اقصى اماني ان اعيش في مثل وحدتك في آخر عمري بعد ان اكون عرفت ما اريد معرفته واطلعت على ما اجب الاطلاع عليه لان اوراق الاشجار التي قطعت الربيع والصيف

صار من حقها ان تسكن في الخريف قبل ان تكفنها ثلوج الشتاء و تضمها الى صدر النسيان الابدي » .

و كنت اخاطبه بلهجة صادقة و ايمان حر فرفع راسه الى العلاء برهة كانه يحاول ان يرى في الفضاء ما تعود ان يراه من قبل ويكاد ان لا يلمحه الان. ثم حول وجهه الي وقال لي بتؤدة ورزانة : « لعلك تريد ان تجلس هنا قليلا ، فقد اعجبني حديثك » !

جلست قبالته على الصخر و كنت لا اعرف ماذا يستطيع ان يقوله لي هذا الشيخ ويرضى عن كلمتين القيتهما على مسامعه بلا اتزان ولا تفكير ولكنني في الحقيقة انست اليه وباركت في قلبي الصدف التي جمعتني به .

قال لي « لعلك لا تنزعج اذا استنسبتك فانا اود ان اعرف شخصية جليسي اليوم » فترددت فاستطرد قائلا « افهم هذا يا بني: ان الرجل الذي يوسع نفسه لاقتبال المعرفة والحقائق يأنف من ذكر الروابط التي تربطه بالمادة ولكنه لا بد له من ان يعترف بان الحقائق التي يلتمسها لا يحصل عليها من العدم ، بل بواسطة العوائق المادية التي يحاول الهرب منها وهي ضرورية لوجوده وكماله »

انتسبت اليه، فجعل يتأوه وقال « اواه ! اتعرف ماذا حضر الى

فكري انتسابك من خيالات الماضي ورسومه ؟ لقد كان جدك رفيقي واخي نعمت بصحبته زمنا لقينا فيه الحلاوة والمرارة والراحة والتعب، وعند موته كنت آخر من وقع نظره عليه فودعني آملا ان التقي به بعدان اترك هذه الحياة»!!

فسررت من هذه الصدفة الغريبة التي جمعتني برفيق قديم لجدي الذي طالما قص علي والدي عنه قصصا تشبه قصص الابطال الاقدمين .

وفي الحقيقة ان جدي كان بطلا لا تزال ربوع الشمال تحفظ له ذكرى شجاعته وحريته ، حتى صارت اخباره قصصا سائرة في تلك الجهات يلقيها الجدود على مسامع احفادهم ، قرب المواقد ، في ليالي الشتاء الباردة وفي الحقول ، عندما يجلس القرويون حلقات حلقات للاستراحة من عناء الاعمال الشاقة التي يقومون بها .

ولقد علقت بفكري صورة حية لجدي ، لكثرة الاقوال التي كنت اسمعها عنه ، فقد كان جميل الطلعة ، قوي العضلات ، طويل الجسم ، ذو فكر وقاد ، وعقل كبير ، وشجاعة غريبة حتى قيل انه كان احسن شبان الشمال صورة في عصره .

غير ان هذه الصفات لم تكن لتعظمه في قلبي ، مثل صفة اخرى ، لا تزال الى الان تحرك نفسي ، وتهز كياني ، وهي محبته لاخوانه ووطنه ؛ وقيل

لي انه كان ملاك رحمة في تلك الربوع ، يكفكف دموع البائسين ، وينتصر للمظلومين ، ويدفع النكبة عن الأشقياء ، ما استطاع الى دفعها سبيلاً .

ولكن موته كان عبرة كبرى فلقد كان يكره المتسلط والمستبد والاجنبي المسيطر ، فكان يعشي في مقدمة المجاهدين لتحرير بلاده مضحيا حياته وراحته واموله في سبيل وطنه وحريته .

وعند ما فشل احرار البلاد من رفع نير الاتراك عنهم لم يكن نصيب جدي بافضل من نصيبهم ، فانه لم يطق الاقامة بعدهم في وطن ذليل وارض مستعبدة ، فذهب الى شواطىء بعيدة خلف هذه البحار وفي بقعة مجهولة وارض قصية جاد بنفسه الاخي مخلفا قصة حياته شاهدة على ظلم الاجانب المستبدين وعلى جهل البشر .

اعاد قول الشيخ الى رأسي كل هذه الافكار . وسكت برهة كئيبا كأن ذكرى الايام الخالية قد حركت في قلبه حزنا دفينا و بعد صمت طويل قال لي وهو يمسح دمعة سقطت على خده : « انني لن اقص عليك اخبار جدك يا بني فلا شك انك سمعتها كثيرا حتى صارت تثقل عليك بتكرارها غير اني لا بد لي من ان اذكر لك امرا ربما لم تعرفه من قبل وهو موت جدك : هجرت معه هذه البلاد وعند ما تحركت السفينة بنا لتترك هذه

الشواطىء اخذنا نذرف الدموع الغزيرة لمغادرتنا ارضا جميلة نشأنا فيها وترعرعنا، ودافعنا عن حريتها جهدنا ، الى ان شاءت الايام، فاقصتنا عنها وعن احبائنا المتخلفين فيها .

ولكن ذهابنا لم يكن عن جبانة، فان السماء تشهد اننا لم نستسلم يوما للضعف، ولم نعرف الخوف مرة وسط العواصف والاهوال ، فكنا نقتحم المخاطر بشجاعة، ونحتمل المشقات العديدة بصبر عجيب، ولكننا عندما رأينا القوة تنتصر على الحق، والظلم على الحرية والحياة، تركنا هذه البلاد لان وجودنا فيها دون ان نستطيع نفعها، اصبح شبيها بانتحار معنوي بطيء لا تضاهي مرارته مرارة الموت .

تركنا هذه البلاد ونحن نحمل في قلوبنا امانى الابطال المجاهدين الذين عرفوا ان يوجدوا من ضعفهم قوة يقاومون بها المستبدين، وعندما خانتهم هذه القوة رجعوا من المعركة فخورين غابطين حظ من استشهد منهم في ساحة القتال يفتخرون انهم لم يستسلموا للظالمين ويعيشوا كغيرهم اذلاء خائفين قانعين بحالتهم المريرة .

نزحنا عن هذه البلاد ، وذهبنا الى ارض غريبة تجهل ما كنا فيه [illegible] لوعة وحرقة واسى، ولكننا لم نعش فيها عيشة المغلوب، بل جاهدنا [illegible] الاقوياء لنحصل المال مشتغلين بجمعه ، وكنا في كل وقت نتذ[illegible]

عن الماضي ، ونأمل ان نرجع يوما لنعود الى الجهاد في سبيل الوطن.

ولكن هذه الامنية لم تتحقق فقد مرض جدك وامسى في خطر، وكنت سميره الوحيد مدة مرضه ، وفي ذات يوم، وقد دنا موته، دعاني اليه فرأيته مبتسما مستبشرا ، وقد اقتربت منه المنية ، وتكاد ان تنشر عليه ظلها .

اظهرت التجلد، وكانت الغصة تكاد تقتلني ، فقال لي بهدوء : « لماذا اراك حزينا كانك تجزع لموتي ؟ فهل انت جهول الى هذا الحد حتى تاسف لذهاب رجل قام بواجبه حق القيام ، ولاقى المنية بثغر باسم وقلب مطمئن ؟

لقد قمت بواجبي فلا يجب ان تحزنوا لفقدي ، واذا كنت وايا كم لم نقدر ان نتمم رغائب الحياة، فكفى اننا جاهدنا جهاد الابطال!! ارفع رأسك وافرح معي لانني سوف اتمتع بنور فجر آخر ، واتنعم بعالم ثان فيه منتهى الكمال » .

ثم حول وجهه الى جهة الشرق ، وشخص ببصره وقال : « يا بلادي يا مهد الابطال وموطن الانبياء ومهبط الوحي ، ومجلى الالوهية ! انني في ساعة موتي ان اتمنى لك نصيبا افضل من نصيبك اليوم ... مجد غابر وعزك الماضي ؟

لقد ضحينا وجاهدنا لاجلك وقاسينا المصاعب والشدائد ، فهل اقدر في ساعة احتضاري ان اتاكد من ان جهودنا التي زرعناها في تربتك سوف تنبت وتزهر وتثمر ، وآمالنا التي بعثناها في فضائك مع الرياح سوف تعصف وتقتلع الاشجار اليابسة في حقول احلامك »؟

وضعف صوته فما عدت استطيع ان افهم اقواله غير انه استمر يتكلم في سره كأنه نبي في ساعة احتضاره يناجي نفسه باقوال خالدة في عالم الضمير والكتمان ، ولكنني كنت استطيع ان افهم معنى كلمات ذلك البطل التي لم اكن اسمعها ، فما اظن انها كانت سوى صلاة عميقة قوية لنصر بلاده ونجاح وطنه .

ثم اختلجت شفتاه قليلا واشار الي بعينيه كأنه يقول لي اقترب ؛ ثم قال لي بصوت متقطع هو اقرب الى الهمس منه الى الكلام : « لاتبق هنا بعد موتي ... فليست هذه ... بالبلاد التي يرتاح فيها مثلك ... ان هناك مدة حياتك ... منزل صغير في بقعة منفردة في بلادك ... وصفصافة تظلل ضريحك .. بعد موتك . اقترب مني لاقبلك .. اذكرني .. الوداع ! ».

اسلم الروح فقمت بواجبي نحو صديقي الراحل ، واتيت الى هذه البلاد احمل له طي الفؤاد محبة خالدة ، وذكرى دائمة . اتيت متسترا ، لا اريد ان

يعرف احدامري بعد ان فقدت اخواني الابطال المجاهدين الذين تركوني في هذه الحياة الشقية ، انتظر ساعة رحيلي . اتيت لاشهد من جديد مراحل الذل والاستعباد التي تقطعها هذه البلاد الشقية .

ان هذه الوحدة قاسية علي يا بني ، لانني اعيش فيها غريبا عن هذه الارض بين سمع الناس وبصرهم ، فانا تعس لم يبق لي همة لاجاهد فجئت الى هذا المكان ادفن فيه سر القوة التي حركت ضعفي يوما من الايام ، واحمل الى القبر افكارا كان احرى بالبلاد ان تتفهمها وتمشي بموجبها التقدم وتسير في موكب الحرية والحياة .

لقد جددت فكري واقتبلت تعاليم اليوم ، واطلعت على جميع ما انتجه الفكر البشري ، فلم اعد من ابناء الامس ، وهذا منزلي حافل بالكتب مملوء بالاسفار ، غير انني لم ار في جميع هذه الكتب ، ما يروي ظمأ الروح المتعطشة الى الحقيقة ، ويهدىء ثورة القلب المشتاق الى المعرفة .

اجل وهؤلاء كتاب بلادنا فهل رأيت منهم من يسلح اقواله بالحناجر ضد المستعمرين ويرضى ان يفقد راحته ، لينير سبيل سواه ، ويطلع في سماء بلاده مشعلا يلقي الانوار على جفون اخوانه الراقدين ليستيقظوا ويجيلوا انظارهم في حقيقة الوجود ؟

لقد اصبحت ضعيفا خائر القوى ، فمن اين لي القوة لاصرخ في سماء بلادي فيسمعني الناس ويفهمون؟ انني لست ناقما ولا متشائما فما انا بالجهول الذي يحسب ان الحياة كريهة والوجود عبء ثقيل ، ولكنني متحرق على افكاري التي تذهب ضياعا ، وسوف تدفن معي في القبر » .

* * *

قال لي هذا وكنت مصغيا اليه اصغاء شديدا خيل لي معه انني تركت الوجود، فلم اعد اعرف اواعي شيئا سوى كلماته القوية الحية التي امتلكتني فلبثت هنيهة جامدا لا اصدق انني اسمع مثل هذه الكلمات الكبيرة الجبارة التي لم اتعود سماعها من قبل .

لقد قرأت كتبا كثيرة لاعظم كتاب العرب، ودرست بعض الكتب الشهيرة لكتاب الغرب، فما لقيت فيها ما يلذ لي ويفيدني ، لان اكثرها كان بعيدا عن الواقع وعن الحياة التي كانت سائدة حولي ، فان كتاب الغرب الذين كنت امجدهم ، لا يستطيعون بطبيعة الحال ان يفهموا حقيقة حياتنا وهم بعيدون، غريبون ، يختلفون عنا في محيطهم وثقافتهم واخلاقهم . اما كتاب العرب فلم يكن فيهم من ساعدته القوة ليقف في وجه التيار الجارف من الافكار المعروفة ويتخذ له طريقا جديدة يسير عليها وحده ويكتشف لنا في

نهايتها عالما من الحقائق والخيالات ...

كان اكثر كتاب هذا العصر ، ينصرفون عن النظر في حالتهم وحالة بلادهم ، الى التفكر باشياء مبتذلة لا تفيدنا شيئا ، فكانت مصيبتنا بوجودهم ، اشد من مصيبتنا بفقدهم . وطالما امسكت كتابا شهير الاعظم كتابنا فما اكاد اقرأ فيه قليلا حتى اطرحه غاضباً مشمئزاً .

اجل ، لقد كنت الى ذاك العهد ، وقبل ان اسمع كلام ذلك الشيخ ، احتقر كل ما تصل اليه يدي من منتوجات الفكر ، وكان عثوري على قطعة واحدة بديعة ، انتصارا لي وفوزا ! فانا لا اعرف قيمة لهذا الادب الذي لا يوقفني على حقيقة حياتي الحاضرة ، ويفيدني افادة حقيقية في الفكر والعمل .

كنت اسر من اولئك الكتاب العالميين الذين يضعون نصب اعينهم محبة البشرية جمعاء ، غير ناظرين الى الفوارق والبلدان ، ولكنني ان كنت امجد هؤلاء الكتاب الغربيين لان بلادهم قوية فانا اعد وجود مثلهم في الشرق الضعيف المغلوب ، وبالا عليه وشؤما .

وفي الحقيقة ان سماعي كلام الشيخ كان لي وقتئذ بمثابة فتح جديد في عالم المعرفة والحكمة ، وتمثلت نفسي واقفا حقيقة امام فكر شرقي متبصر ، وعاطفة قومية جبارة لا تعرف اولا تريد ان تعرف غير حريتها وعز وطنها .

وقد تحول في ذلك الشعور الاول الذي دفعني الى سماع اقواله بدون اكتراث ، الى لذة وتعلق به لا استطيع ان اعبر عنهما ، لانني رأيت في كلماته ما كنت اصبو الى معرفته ، واحس به في داخلي ، دون ان استطيع تبيانه .

كنت احب الحرية ولكن لم تكن لي الشجاعة لكي اعتنقها ، واقدس المعرفة ولم تكن لي القوة لكي ابني لها هيكلا في ارض احلامي فاعبدها ، فما كدت اصغي الى حديث الشيخ القصير حتى شعرت بجداول جديدة تتدفق من قلبي ، واسبابا جديدة لوجودي ، وجهادي في هذه الحياة .

خقيقة ان حب الانسانية هو من اجمل العواطف التي تختلج في قلب كل انسان يصبو الى اعتناق صفات الالوهية والكمال . ولكن ما لنا ولحب البشرية في البلدان المغلوبة ، فقد عرفنا ان المبادىء السامية لم تفد البشرية يوما ، بل حملتها اتعابا جمة لتطبيقها ، وان الحياة العملية هي الاصل والسلم الذي نصعد عليه الى قمة السعادة والحرية والمعرفة .

قلت للشيخ : « لقد وجدت عندك يا ابي الحكمة التي طالما طلبتها في الليالي فلم اجدها ، فبحق المحبة التي كانت تربطك بجدي ان لا تبخل علي باقوالك الحكيمة ، فوالله انني لا احسب ان هذه الربوع قد شهدت

قبلك رجلاحياً عليما . فما اشد فرحي بك ، وما اعظم قدرك في مملكة الحق !» .

فابتسم قليلا وقال لي : « لنقم من هذا المكان ، فان الشمس قد اعتلت في الافق واخاف ان يرانا بعض الفلاحين، فانا لا احب أن اتصل بالناس ، بعد ان صممت النية على الوحدة والانفراد » .

ثم سار فمشيت وراءه ، حتى وصلنا الى منزله فدخلناه، وكنت افكر في نفسي واقول كيف يستطيع ان يعيش وحده في عزلته ، ومن عشاه يقوم بحاجاته ، حتى دخلت المسكن ، فدهشت اذ رأيت فيه فتاة لا تكاد تتجاوز السادسة عشرة جالسة على مقعد تقرأ في كتاب!

القيت عليها التحية بشيء من الخجل والاضطراب، اذ لم اكن متوقعا ان ارى داخل البيت احدا . فلحظ الشيخ اضطرابي وقال لي ضاحكا : « لقد نسيت ان اذكر لك ابنتي (ايلين) فهي فرنسية يتيمة كان ابوها صديقي فلما قضى نحبه تبنيت ابنته ، فجاءت معي تشاركني حياتي راضية بنصيبها ، وهي عندي في معزة ولدي » .

لبثت جامدا احدق في وجهها، واستطرد الشيخ قائلا : « انها لا تفهم لغتنا العربية ، وانني احاول ان اعلمها هذه اللغة فهي تقضي اكثر الاوقات في تفهم الدروس التي اعطيها اياها وقد بدأت تتعلم شيئا ، لان

صغيرتي (ايلين) هي في الحقيقة شديدة الذكاء حادة الذهن.

كان الشيخ يتكلم وانا شارد الفكر ، كأن منظر هذه الفتاة قد نقلني الى عالم غريب ارى فيه معاني الطهر والبساطة والجمال . وعندما جلسنا احسست ان يدا قوية خفية تقربني منها وتجذبني اليها ، كما تجذب الغريزة الحيوانات العطشى في الصحراء الى الواحات الحافلة بالمشرب والمرعى.

كانت ايلين معتدلة القامة ، ترفرف فوقها البساطة ، ويشع الطهر في عينيها ، وكان جسمها متناسب الاعضاء ، ووجهها متزن التقاطيع ، يكاد يؤلف في مجموعه صورة كاملة للجمال والبساطة . واني احار اليوم كيف اصفها بعد ان غابت عن عيني ، مخلفة في فكري صورة ضئيلة لحقيقة لا يستطيع تبيانها الخيال .

قلت للشيخ : « اني لأعجب كيف تستطيع هذه الفتاة ان تعيش معك هنا في وحدتك ، وهي في هذا العمر المرح الطروب اشد ما تكون حاجة الى اللهو ».

فاجابني : « انها لا تقضي كل وقتها معي كما تتوهم ، بل تمكث شتاء في مدرسة داخلية في بيروت ، اما في الصيف فانها تسكن معي ، فاذا ما غلبها الضجر ، بعض الاحيان ، تخرج الي هذه القرى المجاورة ، وقد عرفها سكان هذه الربوع ، عصفورا يغرد في جهاتهم ، وطهارة تسير

على ارضهم »

اما ايلين فقد دهشت لدخول غريب الى ذلك المسكن ، وهي ترفيه وجهاً غير وجه الشيخ قبل الان ، وكانت تنظر الى ابيها نظرة استفهام حائرة ، كأنها تود ان تسأله عن السر الذي احواه ، حتى استطعت ان احادث الشيخ ، واتقرب اليه ، وارافقه الى منزله .

وقد كنت في ذلك الوقت كاكثر الشبان الذين يسعون الى السلوى غير متحفظين ولا متهيبين ، فلم البث ان اقتربت من الفتاة اشاركها في تعلمها القراءة في الكتاب الذي كان بيدها ، وقت دخولي ، ولك ان تتصور دهشتها ، ومبلغ بهجتها عندما سمعتني اتكلم بلغتها الافرنسية ، التي كنت احبها شديد المحبة في ذلك الوقت .

اما الشيخ فقد سره مني هذا الانس بفتاته ، فتركنا للقيام ببعض حاجاته ، ولما عاد كنت وايلين على اشد المعرفة وامتن الصداقة تتحدث بحرية لايشوبها التصنع ، وتضحك بصفاء نية ، كأن البرهة القصيرة التي جمعتنا هي اجيال صداقة بيننا ومعرفة .

ولست ادري اي مشيئة ارادت ان تحرك قلبي بحب هذه الفتاة الغريبة الطاهرة ، فقد شعرت بحياة جديدة تتمشى في عروقي وعالم فسيح من الاماني والاحلام ينفسح امام عيني .

و كنت في قربها اراقب شفتيها عندما تتحركان للكلام ،والاحظ كل صغيرة من حركاتها ، كانني ارى في كل اعمالها ، سحرا شهيا ، يجذب اليه نظر المشاهد ، وكانت رنة صوتها المطمئن ، تشبه صدى الاجراس التي تدق خلف الاودية البعيدة .

وعندما حان وقت مغادرتي المكان ، رأيت ايلين تضطرب كانها خافت ان اغيب سريعا ، وقد جئت أؤنسها في وحدتها ، اما الشيخ فقد وضع يده على كتفي برقة وقال : « ان للغيب يابني مشيئة بك فقدارسلتك الي لانقل اليك بعض الكلمات التي تتماوج في خاطري ، وتكون مؤنسا ورفيقا لابنتي ، فلا تحرمني زياراتك الكثيرة.

انت هنا كابني ، لانك حفيد صديق قديم قطعت العمر معه وافترقنا على امل اللقاء. كن كما اريدك ان تكون ، وامش بحرية دون ان تلوي على شيء واذا قدر لي ان اموت ، فاحفظ ما سمعته مني ، وانقله للبشر ، فاكون قد حييت حياة خالدة بعد موتي واحييتك معي .

ولكي اراك غالبا فانا اطلب اليك ان تكون منذ الان معلم ايلين في اللغة العربية فهي تطمئن الى قربك ، وتقتبل كلماتك لانني صرت عاجزا لا استطيع ان اجلس اليها ساعات طويلة .

فقلت له ، وانا اشد ما اكون ذهولا ، « انني سأكون منذ الان لك ابناً ، يا ابي ، لك ان تأمرني بما شئت اما ايلين فانني سابذل جهدي لتعليمها فلا تلبث ان تعرف لغة بلادي . واما انا فان حظى عظيم ، بهذا اليوم الذي كان صباحه شاهداً ضجري ، والان يشهد عزائي واغتباطي

ثم ودعتهما وانصرفت ، وانا اعيد في مخيلتي مشاهد يومي فامتلىء سعادة وغبطة . فان ذلك اليوم قد اوقفني بغتة في هيكل الجمال المقدس ، الهيكل الذي يضم الحب الى المعرفة والجمال الى الحكمة ، غير ان التعاليم تزول وتبدل اما الجمال فهو الاثر الدائم ، الذي ينطبع على صفحة حياة الانسان الى الابد .

ان الانسان يستطيع بعد التجارب والمصاعب ان يوسع فكره فيجد الحقائق الخفية ، اما الجمال والطهر فانهما يفتحان امام الانسان ابواب جنة علوية ، يتنعم فيها الى الابد . نعم ان هذه المادة اللطيفة التكوين التي نسميها « امرأه » توحى الى الفكر الكمال والبطولة والخلود .

ف تعلم اننى اليوم بعيد عن ارض الحب . بعد ان تنقلت زمانا فيها ارتع في مغانيها وسوف تفهم كيف اننى فى ساعة سمو ضحيت بحبى ونزعته من قلبى لاضع مكانه حباً آخر وهو حب بلادي

يعز علي اليوم ان انشر صفحة من حياتي كانت مطوية ، لاسيما وانا غيري في الامس ، لان تلك العواطف المحدودة التى كانت مستقرة في قلبى كالمياه الراكده قد تبخرت وارتفعت عن القيود ، غير اني لا بدلي ان اعترف ان الماضي الذى انكره اليوم ، قد كان لي بمثابة الباب الذي انفتح امامي فدخلت منه الى جنة العواطف العلوية .

كنت ضعيفا فى اكثر الاحيان وكنت مغترا بمتروكات القرون اعظمها وارفعها الى مكان لا تصل اليه مطامحي ورغباتي كأنما العقول التي اوجدت تلك «المتروكات» قد امحت وانقرضت ، ولكننى عندما فكرت قليلا رجعت الى الثقة بنفسي وعلمت ان الخوف قد عظم كل شيء على هذه الكرة حتى صرنا نهيب الماضي ونستصغر همنا امام ما آتي المستقبل .

ولكن لتتبارك السماء ! فان الضغط الذي تلقيته ولا ازال اتلقاه قد انتشلني من هوة الضعف بدلا من ان يسحقني ووضعنى على قمة جبل الحرية ، حيث يتخلص الانسان من العواطف الحقيره ويتقرب الى اماني ، الالوهية نافضا عن روحه كل غبار ذرته عليها رياح الارض .

انني احس حقيقة انني لست ذرة ضعيفة حقيرة على هذه الارض كما كان يخيل لي ، بل اكاد اقول ان قلبي يسع الارض والفضاء والاجرام

والكواكب ؛ بيد اني لست اريد ان اقتنع بعالمي الغريب متلهياً باناشيدي راضيا بوحدتي ، لان اليد العاملة التي تنفض الغبار عن الزهرة هي اجمل من الف ابتسامة تتلقى بها الفجر والزهور والرياض !

ولكن كيف ادعكم تشعرون بشعوري وتزيحون عن كلماتي ستور الشك والوهم لتروا وراءها ما كنت اراه عند كتابتها ؟ انني اتيت العالم كالسفينة الناشرة شراعها يقبض على دفتها ربان جبار ماهر ، ولكنها سفينة لا تستطيع ان تجوب جميع البحار ، وتخضع لارادتها الانواء والعواصف ، فاقتنعت بشاطئها ، وبقيت تتنقل في هذه الموانىء التي تعودت رؤيتها ، تستقبلها اهازيج البحارة واشاراتهم الفرحة في كل ميناء منها .

انني كالسفينة فدعوني اتنقل في شواطئكم ، واذا كنت ساجد بين عواصفكم الغرق ، فان نصيبي لافضل من نصيب الف سفينة رأت الف شاطىء ثم استقرت منسية في مكان مجهول ، رابضة على ارض لا تعرفها ، جاعلة مخابئها احجارا لثعالب البرية ، الى ان يأتي يوم لا يرحمها فتتقرض وتمحى .

غريب هذا التغيير الذي طرأ على افكاري وعواطفي ، فقد كنت حتى الامس القريب احب البشرية حبا جما واشبع اقوالي وتآليفي بهذا الحب الذي ليس له نهاية ولا حد ، انشد السلام بين الشعوب ، واطلب التقدم

والكمال لبني الانسان .

واني لاعجب الان كيف كنت اصرف افكاري عن بلادي فاتلهى بنصح البشر جميعا وانسى الواجب الذي انتدبتني اليه السماء عندما اوجدتني على هذه البقعة من الارض، اتنعم بخيراتها وافتخر بالانتساب الى ابطالها وعظمائها .

ولكن ليفهمني الجميع، فاذا كنت اليوم قد احببت بلادي وسعيت لخدمتها متعجبا من عهد كنت اسعى فيه لخير البشرية وسلامها دون النظر الى الحدود والفوارق، فانني اليوم اكره كل اجنبي متسلط في بلادي كرها شريفا يجعلني اقاومه بكل قوتي لابعده، حتى اذا ما خرج مددت اليه يد الوداد مصافحا، وابتسمت في وجهه ابتسامة العطف والاخلاص .

انني امقت الافرنسيين لان هؤلاء الكرماء الذين علموني الحرية وعرضوا تمثالها الذي يستهوي النفوس امام عيني ؛ قد كبلوني بالقيود وغمروا رأسي برمال الصحراء. اجل! واذا كنت اتكلم مع ضعفي فلأن لي قوة عظيمة ارهب من الموت واشد من الحياة، هي قوة عرفها البشر لشكسبير، وفولتير، وروسو ، وهوجو؛ بعد ان امحت اسماؤهم عن صفحة الوجود .

لي القوة! وانني اقيم الاجيال شاهدة على اقوالي ان احبائي الذين

يؤيدونني ، والابطال الذين ينصرونني ملتفين حولي صارخين بصوتي لم يخلقوا بعد! ولكنني سوف ابقى معهم بعد ان يجدوني في نهار طويل واتنعم مثلهم بلذة الظفر ضاحكا مثلهم في نعيمهم وراحتهم .

انني لن احيا حتى ارى هذه الارض التي امشي عليها معتزة بمن تحمل من الابطال الاقوياء السائرين مواكب مواكب وراء الحرية ، ولكنني عندما اغمض عيني عن النظر الى هذا الحاضر الذليل ، وامد افكاري الى المستقبل الهنيء ، امتلىء فرحا روحيا كانني عائش في العصور المقبلة .

فيا ابناء الغد ، ايها العائشون بعد قرن او قرنين او ثلاثة قرون ، اذكروا ان واحدا جاء قبلكم وفي عصور مظلمة ، كان يجب ان يعدمنكم ، لا لانه قوي وعظيم مثلكم ، بل لان له من تشوقه وحنينه وامانيه اللامتناهية ما يجعله يتقرب اليكم .

انني سافكر وسانفرد بافكاري فلا اتطلع الا الى نفسي ، كافراً الا بالمشيئة التي اوجدتني ، منصرفا الا عن الحقائق التي تنتصب امامي كعواميد نارية في ليلة مظلمة ، مبغضا الا الحرية التي تظلل حياتي كما تظلل شجرة السنديان المعمرة الزهرة النابتة على اصولها .

لتذكر الاجيال انني احببت ، وانني ضحيت بحبي في سبيل بلادي

اما اذا كانت هذه التضحية خيالية لان الحب وهمي غير ثابت يأتي كالبلبل مع مجيء الصباح ، فيتنقل حينا في رياض الشباب والامل ، ويذهب بعد ما تقف الشمس مودعة عند الغروب ، الا فليعلم ابناء القرون المقبلة ان العاطفة التي يحسبها الجهلاء وهمية ، هي اثبت من الحياة واصدق من الوجود ، سواء اكانت في زمن الشباب حبا ، وفي الكهولة حكمة ومعرفة ، وبعد الممات خلوداً واملا .

كنت ضعيفا مستسلما قبل ان اعرف ايلين ، وكانت القوة كامنة في روحي لا اجد سبيلا الى اظهارها فتبقى حاكمة سراً في عقلي ، تجعلني اميراً في مملكة خيال واسعة ، فاظل معتزلا الناس ، وعن هذا العالم الذي كنت اعده غريبا عني ، اما اليوم فقد عرفت كيف احطم ذراعي الضعف اللتين كانتا تطوقاني ، واقبل اقدام ارادة الله الحبيبة.

الفصل الثاني

سرت معها فوق التلال ، وقد فرشت امامها ضحكاتي ، كما تفرش الحقول الزهور امام خطوات الربيع .

كان وجه حبيبتي ايلين ناعما كالحلم الذي يسكبه الصباح في قلب الزنابق البيضاء ، وعيناها هادئتين قصيتين ، تمتد وراءهما عوالم سحرية بعيدة المدى .

اما قوامها فكان شبيها بغرسة جديدة ، تتمتع وحدها بنور فجر جديد ، هو فجر عالم آخر .

ان العتمة لتجلس على هامة الكواكب النيرة ، ولكن فكري سيظل متوقداً ينقل للبشر اشباح تلك المشاهد ، لتبقى اثراً خالداً يمثل لابناء الحياة ذكرى الحب والجمال .

ولعل اشعة الوحي التي تغمرني لا يفسدها سقم تعبيري ، فتظل سابحة بين روحي وروحها ، حاملة اليها الكلمات التي لم استطع ان انطق بها ، مطلعة اياها على اسرار هذا القلب التي بقيت لغزاً ابديا لم تحله الايام او توضحه الليالي ...

سرت معها ... والان بعد ان محت الاعوام آثار مشيتها عن

صفحة الثرى ، لا ازال اراها سائرة على ارض قلبي ، اجلس معها على صخوره ، تتسمع ترنيمة غدرانه ، قاطفين الورود بانامل الحنين ، متنشقين النسيم مضمخاً بعبير العلاء !

كنت اتبعها الى مجاهل الوجود ، متطلعا حقيقة حياة لا نهاية لها ؛ مصغيا الى نغماتها ، كما تصغي التلة الى اصوات بعيدة تتماوج في وادٍ متخف عنها ، واليوم ... بعد ان اختفت عن ناظري ، متوارية خلف جبال الكون ووهاده احدق في خطوط الشفق القريبة لعلي المحها ، واصغي الى الفضاء القائم بين نفسي ونفسي ربما اسمع فيه اناشيدها .

فيا ترى من اي طريق يمكنني ان اصل الى ارض وحدتها ، لانظرها عارية بين الخمائل تحت اشعة الشمس ، وكيف تقدر الفاظي ان تتجسم وتلتف برداء ذكراها الذي يحجبها ولا يحجبها ؟

الا انني محتفظ بشيء من ازهار جمالها ، فاتركوني انثرها في الهواء ، ليحملها الى كل حقل ، وملتقط بعض متروكات افكارها الثمينة ، فدعوني افرقها على كل طالب لعله ينشرها في معرض افكاره ، فتدوم مادام الفكر البشري متقصيا وراء بقايا الزمن .

كنت غراً مغلق العواطف عند ما عرفتها ، فكأن الغيب ارسلها الي في طريقي لتخلصني من هاوية الموت ، وترفعني فوق عرش ارفع من

عروش المجد ، وتنياني رغبات ابدع من رغبات البشر . وعند ما نظرتها كنت كغرسة ارز نبتت جديداً ، بين ناطحات السحاب المعمرة ، تتطلع الى الشمس الضاحكة ، حالمة بعدد القرون التي ستحفظها .

بلى ، وكأن الساعة الاولى التي جمعتني بها ، اول ادراك تضعه السماء في قلب ابن آدم ، فظننت انني تمثلت امام كل ما كر من القرون ، واطلعت على جميع مخبئات الزمن ؛ بل حسبت انني كميت الاجيال فتحت عينيه بغتة يقظة القيامة .

نظرتها ، واي جرس الهي رن في جوانب نفسي ، ام اي حلاوة تحوي كل مافي الكون من نقاوة ؛ و كل مافي الربيع من طهر ، استولت على فؤادي ، وما اتصور نفسي وقتئذ الا كدائم السعادة يأتي الى الناس في احلامهم الى الابد .

نظرتها ، ومن اين لي فكر الالهة ، لابين كيف رفعتني نظرتها ، في دقيقة واحدة ، فوق الكيان المحدود ، لاسمع اناشيد الملأ الاعلى وانتصر على جميع العواطف البشرية ، بل من اين لي سحر عينيها انشره على كلماتي ، فتوحي للبشر ما كانت توحيه تلك العينان ؟

ووددت لو ان في تعابيري نهاية العواطف العلوية ، التي كانت في فؤادها فاظل اتمثل بها جمال تلك العواطف واستحضر فيها صورة قدسية

من صور كمالها ، العالقة بفكري ، كما يتعلق الصفاء والروائح العطرية باذيال الربيع .

ولكن لماذا ـ لماذا اريد ان اتذكرها كانها بعيدة عني ؟ اليست هي قاطنة في اعماق فكري ؟ وعند ما اجلس كل مساء محدقا في الفضاء الست روحها بين النجوم ؟

لماذا اصف الجوهرة للسامعين بينما الجوهرة في يدي يستطيعون متى شئت ان ينظروها ؟ ولماذا افتح امامهم سهول خيال يضيعون في نهايتها بينما هم واقفون على جبال بياني يرون في صحراء الفكر ما لا يراه ابن الصحراء ؟ ...

قبلها كنت كالفلاح المستيقظ عند الصباح ، لم يأخذ بعد نصيبه من الراحة ويتخلص من اتعاب النهار الماضي ، فيستقبل الفجر متثائبا ويسمع ترنيمة الشحرور متأففا ، فهي جاءتني لتنبهني وتقود خطاي الى حقول الاحلام حيث تنبت الفضيلة والطهر والجمال .

كنت متحمسا لبلادي ، اطلب الحرية ، واشعر بوجود شيء اجمل من الكائنات ، واقوى من الموت ، شيء لا يعرف الفناء لانه خالد ، ولا يغتر بالاضاليل والترهات لانه نبوي المعرفة ، شيء لم اكن ادري له اسما ومعنى حتى اتيت فعلمت منه الحياة ...

الحياة ! وهل تسكن الكهوف المظلمة الا لتنيرها ، وتنتقل على الاشجار المنفردة في القفار الا لتحول وحشتها الى انس وكآبتها الى بهجة آلهية ؟

ان اوتار هذا القلب تحركت قبلها ولكن تحت تأثير نفخات بشرية ، ففي صبيحة يوم شاءت الاقدار ان اعلقه على شجرة في روض الحياة فايلين جاءته كالنسمات واخرجت منه لحناً ابديا يشابه الاصل الذي ضربه ...

وتالله اني لأهزأ بالفن ، وابدو غريبا عنه لولا ان الفن ينشد ذاته المعنوية في اهمالي البريء ، واني لاسخر من الاساليب السحرية ، والشعور اللامتناهي ، لولا ان الشعر نفسه يتجلى في هذه الهمسات الضئيلة !

واني لاعجب من ان اصوات الارض جميعها منذ ابتداء الدهور ، وضجيج الخلائق كلها منذ ان وجد الخلق ، قد تجمعت وضيعت ذاتها بصوتي الضعيف ، لتخرج اناشيد ابدية على غير معرفة مني ، تهز بعذوبتها قلب البشر وتنبه بحلاوتها غفلات الزمن الهارب .

واني لاعلم حق العلم ان حبها وحده مزق الحجاب عن قلبي فشعرت واشعل مصباح فكري فاضاء ، ولو ان في القلب ما يخلد معرفة الجميل ، لكان اليوم فضلها يتردد في كل واد ونداؤها يتجاوب على قنة كل جبل .

فيا ايها الناس ، اتعلمون ان في خرير الغدير المترقرق غير اللحن الذي يوقعه جريان الماء ، وفي طعم ثمرة التفاح غير اللذة التي تنبه حاسة الذوق ، وفي افكار البشر غير المطامع التي تسوق ايامهم والانانية التي تضع الغرابة على كل ما يقولونه ويفعلونه ؟

* * *

كنت آتي غالبا الى منزل الشيخ فارى ايلين جالسة تنتظرني ، فلا تكاد تراني حتى تهب لملاقاتي كمن ضيع شيئاً ثمينا ثم وجده . واذكر الان انني تغيبت مرة فعاتبتني وبقيت مدة حانقة علي لا تكلمني .

وكان حبها يتزايد في قلبي يوما فيوما حتى بت لا أطيق فراقها . وكنت احاول ان افتش عن السلوى بعيداً عنها فلا اجدها ، غير ان البهجة كانت تلازمني في حالتي القرب والبعد ، اذ كنت مطمئن البال احدث نفسي بالاماني ولم يخطر على بالي يوما انني سأفقدها او يزاحمني احد على حبها .

وقد جلست يوما احادث الشيخ واتلقى كلماته الحكيمة فرأيت ايلين تترك عملها وتأتي الينا لتسمع احاديثنا التي لم تكن تفهمها .

كان الشيخ يقول لي : « ان الخوف يابني هو علة العلل في الشرق بل في العالم اجمع ، فطالما فكرت بالشجاعة لافهم لها معنى حقيقيا فما استطعت ، وقد راجعت تاريخ حياتي فرأيت انني كنت ضعيفا في الماضي

وقليلا ما شعرت بالحرية الحقيقية التي تحرك العواصف ، فتدمر الحقول، وتهيج النفوس الذليلة فتتمرد وتثور بيد انني اليوم استطيع انا اكفر عن الماضي وادعي انني تخلصت من الخوف الذي كان يقيدني سرا ومن الاعتبارات الضعيفة التي كنت افسح لها مجالا في عقلي .

ان اقوالي التي اصرح بها اليوم ليست عن هوس أو جنون يابني بل انها تحمل نتيجة تفكر عميق متواصل . وطالما سهرت الليالي وقضيت الايام مفكراً دارسا منقبا متأملا حتى عرفت اخيرا ان السكوت وحده قد اضر بالشرق ، فلم يستطع ان يظهر حقيقة افكاره وامانيه .

لقد بقينا دهورا عدة من يوم ان ذهب مجدنا القديم ، نولد ، ونعيش ونموت ، ونحن كما نحن اذلاء ضعفاء نغتر بالاوهام ، ونعيش بالاضاليل والترهات ، ونرضى بالحالة الوضيعة التي اوجدتنا فيها الايام ، وكنا في كل عصر نصيح : « هذه هي قسمتنا » !

والله انني اود ان تحرم هذه البلاد سكانها قرنا وقرنين ، ولا يعيش فيها مثل هؤلاء الاقوام الذين لا يضيفون الى تاريخها المجيد سوى كلمات ذل واستعباد وضعف وجهل !

لقد نمت حينا من الدهر ظننت ان لا يقظة لي بعده ، وكنت في

طول هذه المدة ، افحص الكتب وانقب في الاسفار ، واطلع على الآراء الكثيرة في الشرق والغرب ، وما كدت اصل الى هذا الوقت حتى قررت فيما قررته ان كل شيء عندنا فاسد ، وانه يجب علينا ان نخرج من هذه العزلة البادية اثارها علينا ، ناقمين متمردين ونحن نصيح « الثورة »؟!

اخرج الى العالم يابني الى جهاد الحياة وجاهر بالاقوال التي تسمعها مني فان المنية قد امهلتني ، فبقيت بعد اخواني المجاهدين الذين مضوا لاحضر للناس شيئا من عواطفهم القوية ، التي رضيت بالمشقات والعذاب والموت في سبيل الوطن !

كنا نحارب المضطهدين الاجانب الذين اغتصبوا بلادنا في ذلك الوقت ، وكانت الحياة هينة واماني البشر محدودة ، اما اليوم فانا ادرك اننا في عصر جديد بقيت لاشهد اوله ، فقد تعددت رغبات البشر واصبحت المطامع والآمال واسعة الفضاء ، بعيدة الآفاق فلم يعد بامكاننا ان نقاوم هذا التطور ، الذي ساقنا اليه الناموس الطبيعي .

غير ان مسؤوليتنا قد عظمت بزيادة الغايات التي يجب ان نسعى وراءها فان سوريا القديمة التي كانت لا تحتاج الى اكثر من معارضة قوية لنيل بغيتها صارت بحاجة اليوم الى ثورة جامحة تعصف في البلاد وتهز سكانها من اقصاها الى اقصاها ، فلا نلبث ان نرى جميع الناس يصيحون

ويصرخون : « نريد الحرية؛ الحرية المحبوبة » .

اجل ان الخمول الذي كان يسوقنا الى باب الحاكم الظالم لنطلب منه العدل ، فلا نلقى سوى الهوان، صار يجب ان يتحول الى عزم وجبروت يدفعنا الى مكان ذلك الحاكم الجاهل لندق عنقه دقا، ونعرض جثته المهشمة على انظار الجمهور الصاخب، الطالب الحق والحرية !

لو كنا في غير هذه البلاد ، لما كان يصح ان نقول هذه الاقوال ، لان الروح الوطنية التي تلهبنا كان يجب ان تتحول في غير بلاد الى روح انسانية ، تميلنا الى نفع جميع البشر؛ وتدفعنا الى مناوئة كل طاغ جبار ، وفئة مضلة .

اما في سوريا، فيجب علينا اولا ان نطرد الغريب الفاتح، ونستقل خيرا باحكامنا ، حتى اذا ما نجحنا، رجعنا الى التفكير بحالتنا والنظر في امورنا، وحينئذ نستطيع ان نقول ونفعل؛ لان الاجنبي الذي ينصر الجهالة اليوم على العلم والجمود على الحركة ، ليظل متسلطا بيننا، يكون قد ذهب وترك المجال للشباب الثائر الطالب الحق والحرية والحياة .

ان التضحية التي نقوم بها اليوم لا تنفع ، لان التلهي فيما بيننا يترك الحرية للاجنبي في اعماله الظالمة، واطالة وجوده بيننا الذي ليس له مبرر . ووالله اني لا اعرف ما معنى قبولنا المبادىء العالمية مادمنا نعرف ان لا نسبـ

للعدل بين طبقات الشعب عندنا ، ونظل نقدم للغني البخور وللارستوقراطي الاعجاب والخضوع والاحترام ؟!

هي ثورة هائلة اتمناها لهذه البلاد ، ولست اعني نفسي منها ، فقد جاهدت وعملت عندما كنت لا ازال قويا تجري دماء الرجولة في عروقي وتختلج العواطف الجامحة في قلبي ، اما الان فيكفيني ان اشارك شباب الغد في عاطفتي مرسلا اليه من هذه الوجدة كلمات القوة والانتصار .

فقلت له مضطربا : « ابي ما ذا تطلب منا ؟ اتظن ان البلاد اليوم ، تقبل هذه المبادىء وترضى بالعذاب والتضحية لتقوم بعمل تعده خياليا والقائمين به مجانين ؟ ومن يستطيع ان يدخل في قلب هذا الشعب الجاهل الثقة ، ليثور لاجل منفعته وتقدمه ؛ نابذا كل ضلال وعبودية طارحا وراءه معتقدات الامس القريب والخوف القديم المالك عقله وايمانه ، وحياته نفسها ؟

انا اقبل اقوالك يا ابي واعترف بعظمتها ، ولكن العاطفة القديمة التي كانت تدفع ابطالنا الى الموت في سبيل البلاد ـ وفي سبيل البلاد وحدها ـ قد احتضرت لا لنعتنق عاطفة ارفع منها واسمى ، بل لنرجع الى خرافاتنا وغرورنا وتعلقنا بعادات الغرب تعلقاً اعمى ضيع علينا ثقتنا بانفسنا ، وثقافاتنا ومبادئنا .

انا متعلم يا ابي وانك لتعجب من انني لم اسمع ولم افكر بمثل اقوالك قبل الان ، حتى انه يخال لي انني اسمع حكمة جديدة . فان عاطفة الوطنية التي حركت شعوبا كثيرة قبل سنين لتطالب باستقلالها ، فقد فقدت الان فيها ليقوم مكانها غير مطالب ومبادىء ؛ اما نحن فلم نزل في دور انحطاط ، محرومين فيه كل عاطفة سواء أكانت وطنية ام اصلاحية ، في السياسة والاجتماع .

فتبسم الشيخ وجعل يتلاعب بلحيته البيضاء ، ثم قال بلهجة الحاكم الذي يلقي حكما رهيبا يخاف ان لا يكون عادلا رغما عن مطابقته تماما القوانين البشرية : « لا تخف من جهلكم وجمودكم يا ولدي ، فانكم سوف تتحركون ليس بارادتكم بل بارادة قوة خفية حركت الغرب وجاءت تحرك الشرق .

وانني ارى منذ الان الدماء تجري ، والنفوس تزهق واسمع جلبة عظيمة تملأ البلاد واصواتا مختنقة تصيح بقوة تتمزق لها العروق: « لن نكف عن طلبنا: نريد الحرية ، نريد الاستقلال ، نريد التقدم والكمال ، نريد المساواة والعدل » .

اسكت يا بني ، فان العاصفة سوف تثور ، وانه خير لنا ان نشرد ونموت ونرى اولادنا يسقطون الواحد تلو الاخر ، في ساحة الجهاد ،

ونساءنا يركضن تائهات فوق الجبال ، ووسط السهول ملتجآت الى المغاور . اجل انه خير لنا ان نرى كل هذا من ان نبقى في هذه الحالة الذليلة والجهل المطبق .

لا رأفة ولا شفقة! فاذا كنت تخاف ان ترى الاوصال متقطعة ، والجماجم محطمة . والاشلاء مبعثرة ، فالافضل لك ان تهرب الى مكان لا تصل اليه نسمات الحياة ، فتعيش حينا كالحيوان ثم تموت تاركا وراءك بقايا منتنة وحاملا معك روحا ذليلة مهيضة الجناح مترددة وجلة ..

دعني فقد ثقل رأسي دعني .. دعني ..

قال هذا ومضى متثاقلا ، فبقيت جامدا متحيرا الى ان تنبهت لوجود ايلين في جانبي ، وكانت تحدق في متعجبة ، ثم تقدمت مني وقالت لي بلغتها الافرنسية ولهجتها الحلوة « ماذا كنتما تقولان وما سبب هذه الحدة التي كانت مستولية عليكما ؟ »

فتحيرت ماذا اجيبها ، وحاولت ان احدثها بغير اشياء . فلم تذعني بل قالت اريد ان تتكلم ، اريد ان تجيب ، فقد كنتما عظيمين في جدالكما وكانت القوة تسوق اقوالكما ، فلم يكن بامكاني الا ان اسمعها قل لماذا انت ساكت ؟ اترفض طلبي ؟ »

فامسكت بيدها الناعمة اللدنة وقلت لها متأوها : « انت طفلة

ساذجة، يا ايلين، غريبة بثقافتك واخلاقك عنا، لا تستطيعين ان تفهمي معنى الاقوال التي كنا ننطق بها، فيما اذا نقلتها الى لغتك . اجل يا ايلين، فلو اني حاولت ان افهمك ماذا كنا نقول لتعجبت ورميتنا بالجنون او العماهة.

نحن يا اختي نفكر بحالة بلادنا الذليلة ، وندعو الى طرد الاجنبي منها ، وتنوير اذهان ابنائها ، لينبذوا كل عبودية ، ويسعوا وراء الكمال ، نحن نريد ان تحرك الحرية افئدتهم الساكنة فيتمردوا على الظالمين، ويثوروا على الاجانب المستعبدين .

اما الشيخ فهو المثل الاعلى للجهاد والحرية ، يعطيني دروسه في المعرفة والحق ، وبدلا من ان اجادله كما يخيل اليك ، فانا اتلقى كلماته العالية ، لاستنير بنورها ، واحملها الى ابناء قومي في المستقبل ... » .

فقاطعتني قائلة بخوف : « اذن كنتما تتآمران (ضدنا) ولماذا ؟ السنا اصدقاءكم ، وهل تحملون لنا العداوة ، ونحن في قربكم دولة قوية على اعدائكم رفيقة بكم ؟ ماذا ؟ اتعدون وجودنا بينكم ذلا لكم واستعباداً وهل تطلبون حريتكم عن طريق كرهنا ونحن لم نفكر يوما بان نضيق عليكم او نبغضكم ؟ ... » .

فوضعت يدي على فمها بحركة عصبية وقلت لها مشفقا : « اسكتي اسكتي ، يا ايلين ، فانت غرة لا تعلمين ماذا تقولين . اسكتي فان قلبك

الصافي لا يعرف ماذا يجر علينا الاجانب من الويلات ، وعقلك السليم لا يقدر ان يكتشف نفاق البشر وخزعبلاتهم » .

فقربت رأسها من صدري وقالت لي باكية : « انك ترعبني ، انك تخيفني ، فماذا تحوي في صدرك ، واي شيطان يحرك عقلك ؟ كنت اظنك ساكنا ناعما كنسيم الارز ، وكعبير الوادي فاذا بك تشبه العواصف . كنت احسبك كهؤلاء القرويين الممتلئين عافية ، لا يفكرون الا بالاعمال ولا يعتنون الا بعائلاتهم ، فاذا بك تتغنى بالحرية ، وتصرف افكارك الى بلادك .

انك ترعبني انك تخيفني ، فقل لي انك لن تعود الى مثل هذه الافكار التي تقصيك وتبعدك عن افكاري ، قل لي انك سوف تظل لي اخا يسليني في وحدتي ، ويقودني الى الحقول حيث نرتمي على الاعشاب تحت اغصان الاشجار ، ونسابق الانهار في مسيرها .

لقد كنت طروبا فلماذا انت حزين ؟ انسيت يوم مشينا على هذه التلة القائمة قبالتنا ، فكنت حينئذ ضاحكا ، كازهار الربيع ، نير الفكر كفجر الارز ، خفيف الخطوات كخيوط الغزالة التي تظهر في الافق .

انت تشفق علي ، بل . . . تحبني ! انا اعرف قلا تقل اني غرة ،

احسبني كاختك وكن لي ، فانا لا اريد ان تصرف افكارك عني . انظر الى هذه المنخفضات والتلول ، وتأمل كيف تمشي السكينة في جوانب هذه الوادي ، اليس في هذه المناظر السحرية مايشغلك ويغريك ؟ » .

وكانت لاتزال مرتمية علي ، فاقصيتها برفق عني ، وقلت لها : « لاتحاولي يا ايلين ، ان تلطفي خلقي ، فانا مجروح متألم وان بدوت لك قاسيا ، فان اقوالك وحدها البسيطة تكاد تستنزف الدمع من مقلتي ، ولكن اصبري فان ماترغبينني به هو وحده سبب شقائنا وتأخرنا . نعم ، يا ايلين ، ان هذه الربوع هي جميلة وسحرية ، ولكننا لا نستحقها ما دمنا اذلاء ضعفاء .

آه ، ياايلين ! ما كنت اريد ان تعرفي حقيقة عاطفتي نحوك ، ولكنني لم اعد استطيع الكتمان ، فانا احبك ، احبك واعلم انني مجرم بهذا الحب ، اذ انني لا استطيع ان اقدسه واقيم له معبداً في قلبي ، لان افكاري متوجهة الى ناحية اخرى .

احبك وان يكن من شرف في الحب ، فانه يحق لك ان تعتزي وتفتخري ، لانك الوحيدة التي جركت فؤادي ، وسلطت عليه اشعة قوية مجهولة انارته ، وقد كان مغموراً بظلمة جهل كثيفة .

ايلين حبيبتي تعالي الي . فانا لااستطيع ان اعيش بدونك ، تعالي فان

افق حياتي سيظل مظلما الى ان تشرقي فيه ، ورأسي سيبقى ضيقا الى ان توسعي فيه المدارك بعطفك وحنانك ، وحينئذ تستحقين شكري الى الابد . » .

فتضاحكت ، وامسكت بيدي ، تجرني الى الخارج ، وكانت الشمس مرتفعة في قبة الفلك ، فقالت لي : « اننا سنذهب للنزهة على كتف الوادي » ! وقبل ان تدع لي مجالا للاعتراض مشت امامي فتبعتها ، وكانت تتنقل امامي كالغزالة النفورة .

اما انا فلا اعرف اي رابطة قوية كانت تربطني بها ، فكنت اسير وراءها ، كانها تجذبني جذبا ، وقد بقينا سائرين الى ان ابتعدنا عن المنزل واختفينا وراء تلة يسير في القرب منها جدول مترقرق .

قادتني الى صفصافة قرب الجدول ، فجلسنا تحتها ، و كنت في الحقيقة قد سررت بهذا المنظر البهيج ، فنفيت عن افكاري الكمد ورجعت الى زهوي وغبطتي .

وتمددت ايلين على الثرى بقامتها الغضة وثيابها البيضاء كانها حورية استحمت بمياه الجدول ، وجلست تتنشف باشعة الشمس ؛ وكان وجهها

زاهيا ، وشعرها الذهبي منتشرا حول وجهها الابيض ، كما تنتشر انوار الشمس عند الغروب ، حول الثلوج الممدودة على جبال لبنان الحبيبة .

كانت ايلين في سرورها ، كفكرة صافية مملوءة بالأمل والايمان ، وكان جسمها شبيها بحقيقة علوية متشحة بالنور ، وملتفة بالضياء ، فلا يعود بامكانك ان تتفحص ملامحها ، وتزن تقاطيع وجهها .

ولم نقض وقتاً قصيراً ، حتى التفتت الي ، وارسلت نظرات مملوءة باشعة غريبة مجهولة . ثم وضعت يدها على شعري تعبث به ، وقالت لي : « لقد شاء الزمان ، ياحبيبي ان يجمعنا على هذه الارض الغريبة ، لنتحد بالحنين والمحبة ، ونتعارف بالطهر .

لنغتنم فرصة الاوقات الهاربة ، ياحبيبي ، ولنبعث اغاني الحب في سكينة الليالي ، قبل ان يضمنا القبر في جوفه المظلم . لنستضيء بنور الحب ياحبيبي ، مادام مصباح حياتنا مشعلا ، ولنتناج تحت اشعة القمر ، وفي ضوء الشمس ، قرب الجداول الجارية ، وفي الاماكن الخالية .

لينعم الناس بافكارهم ، ياحبيبي ، فماذا يهمنا من الخلق ، اليس كل واحد منا غريباً على هذه الارض ، مفترقا عن غيره بامانيه وآماله ؟ اليست

جميع المبادىء واهية متناقضة ، لم تسعد البشر يوماً ، ولم تهدهم الى الكمال ؟ دلني على افكارك ، يا اخي ، ولنقف متحدين تحت اجنحة الحب . » .

وكنت افتش عن فمها ، فقبلتها في ثغرها ، والقيت رأسي على صدرها وقلت لها : « اجل ، يا ايلين ، لنتنعم بالحب ، ولنرض بهنائه ، مادمنا لا نستطيع ان نجد حقيقة على الارض او كمالا . هات يدك ، ياحبيبتي ، وقودي خطواتي الى جداول الاحلام ، حيث ارتوي ، واطفي لهيب قلبي .

ان الطبيعة ، يا حبيبتي ، لم تعد تطربني ، فسواء عندي ان اعيش في روضة غناء ، تجري فيها الانهار ، ويعتل وسطها النسيم ، وتغرد على غصونها الاشجار ، او وسط قفر موحش لا شجر فيه ولا ماء ، تقطعه عصافير المساء خائفة ، مادامت الرياض والقفار في قلبي .

انت روضتي يا ايلين ، وانت العصفور الذي يغرد على غصن قلبي فيطرد وحشتي ، ويؤنسني ، فما نفع هذه الربوع بدونك يا ايلين ، وما اوحشها واقساها ! ايلين ، انا متعطش للحب ، انا مشتاق الى عناقك وضمك الى صدري فان قربك يحييني .

قومي يا اختي قومي ، فان الجمود يقتلني ، قومي لنتمشى في هذه الامكنة حتى تدمى قدمانا ، ويشكو الينا قلبانا تعب المسير . قومي فانني افضل ان اظل تائها في البوادي وعلى الجبال ، على ان امكث جامداً في مكان واحد . لنجدد عواطفنا كل يوم ، ولنسق زهرة حبنا كل صباح فتدوم ، وتبقى نضرة ، زاهرة .

ولست ادري ماذا اخذني وقتئذ فحملتها بين يدي ، وصعدت بها الى مرتفع كان قائما امامي ، حتى اذا ما وصلنا الى اعلاه ، راينا منبسطاً من الارض ممتداً امامنا ، على طول النظر ، تسير فيه سواقي عديدة ، خطت مجاريها ايدي القرويين وسيروها في ذلك المكان ، كانها خطوط بارزة على خرائط جغرافية » .

سرنا على درب ضيقة شبه مستقيمة ، حتى وصلنا الى اول جنينة كانت وحيدة في تلك الناحية ، فدخلناها ، وكانت ايلين مستندة على ذراعي ، يكاد يلتصق شعرها بوجهي ، فبغتتنا لوجود الشيخ جالسا تحت شجرة جوز هناك ، وكاد الخجل يقتلني ، غير انه فتح ذراعيه ، وتقدم منا ، فغمرنا وجعل يذرف دموع الفرح ويقبلنا .

قال لنا متأثراً : « انتما ولداي يحمل الواحد افكاري وذكراي

والآخر يحمل عطفي وحناني، فلا تحاولا ان تفترقا . ان ايامي صارت معدودة الساعات على هذه الارض ، ويسرني ان ارى هذا العطف الذي يجمعكما ، فلتبارككما السماء .»!

وعند ما رفع الشيخ يده ليبارككنا ، كانت الشمس قد اختفت وراء الحجاب ، وبدأ القمر يطل بوجهه المنير في الافق .

الفصل الثالث

جاء تشرين . وكان رأسي قد امتلأ من تعاليم الشيخ ، وفي مساء احد الايام ، ابقاني الشيخ عنده ، وكان الضعف قد هد قواه فلم يعد بامكانه ان يذهب الى خارج المنزل ، وكنت احس ان روحه بدأت تتسرب من جسمه رويداً ؛ رويداً كما تتسرب النضارة من الحقول الصفراء عند مجيء الخريف .

بقيت في منزل الشيخ ، وكانت ايلين جالسة في القرب من نافذة تطل على الوادي ، مصغية الى اصوات مجهولة متعددة من صفير الهواء ، الى دوي الانهار الهابطة في الاودية العميقة ، الى صراخ بعض طيور الليل ، الخارجة في تلك الساعة ، تقطع سكون الليل باصواتها المزعجة .

وبغتة ، ناداها الشيخ فقطع عليها تأملاتها ، وقال لها : « انتبهي الى قولي يا ابنتي : لقد تبنيتك وانا اظن ان الدهر سيمد في عمري ، فاذا به يوقفني على شفير الهاوية ! انني ساموت يا ايلين ، وما اظن ان الصباح سيطلع علي ، فلا تذكريني الا بالحسنى .

سأكلمك الان عن ابيك يا ايلين ، فهو قد اوصاني ان افعل ذلك قبل موتي: كان ابوك فرنسيا صالحا ، من هؤلاء الرجال الاخيار الذين ينبض في قلوبهم حب الانسانية ، وكانت الارض عنده وطنا واحدا مقدسا ، وجميع الناس عليها اخوة ، متساوين بالعدالة والحقوق والحرية ، فكان لايطيق ان يرى شخصا يتعدي على آخر ، اوأمة على اخرى .

كان ابوك محبا للانسانية وعلى هذا احبني ، فقد كنت مثالا لما يحب ان يكون عليه الرجل الضعيف المستعبد ، المحب للحرية ، افهمتني يا ايلين ؟ كنت ضعيفا شريفا ، وكان ابوك قويا شريفا ، وقد ربط الشرف قلبه بقلبي .

ان الجهل وحده ، يا ابنتي ، يولد البغض والاحقاد والمنافسة والطمع . ولكن الرجل الحي ، لايرضى بالحالة الشائنة التي يوجده فيها الجهل ، بل يتمرد ويثور ، وقد ثرت وتمردت ، وما اذكر مرة ، انني رضيت بالظلم ، او قنعت بالجور . حتى في هذه الساعة ، فانا اذهب ضحية الحرية .

كوني مدركة ؛ يا ايلين ، واحملي افكار ابيك الصالح ، فانا اريدك كاملة الصفات ، شريفة الاخلاق ، تشبهين اباك بعواطفك ، كما تشبهين الارز بصفاء وجهك ، والفجر بجمالك ، والوادي المقدس برهبة أسرارك :

اريد أن تقنعي بالتضحية اذا مادعاك اليها الواجب ، وان تزني عواطف غيرك المتباينة عن عواطفك اذا ما اردت ان تحكمي عليها .

ثم التفت الي ، والقى علي نظرات مريضة ، وقال لي : « اما انت يابني ، فماذا اقول لك ؟ لقد كلمتك كفاية في طول هذه المدة التي عرفتك فيها ، وما كنت اظن ان التقادير تسمح لي بهذا التلاقي ، غير ان للغيب مشيئة في البشر فوضعك على طريقي ، لتنقل للناس افكاري بعدان تواريني الظلمة .

ان ساعتي قد حانت ، فبماذا اوصيك ؟ انا لست اريد ان اقول لك « جاهد وناضل » فانت اضعف من ان تقوى على ذلك ، ولكن بحق السماء لاتستصغر نفسك ، ولا تجبن امام المصاعب ، فان المرء اذا عرف قدر نفسه وفهم حقوقه الطبيعية وحريته ؛ لايضعف ولايستسلم .

عدني انك ستتكلم بصراحة وحق ، ولو نبذك واحتقرك الناس ، بل عدني انك ستبقى بين الشعب ، منضما الى اخوانك الثائرين متنازلا عن كل رغبة وأمل ، لتتمم رغائب وآمال الاخرين ، مشتغلا للمبدأ والاصلاح فقط ، كما يجب ان يكون شباب اليوم . اقسم بتربة والدك وجدك ، انك ستطغو وتتكلم . » !

فقلت له ، وانا اكفكف دموعي . « اقسم لك بتربة والدي انني ساحافظ على اقوالك ماحييت ، لانني اتلقى كل مايقال لي دون نقد ولا تمحيص بل لانني اجد فيها الصلاح والحقيقة .

انني سأتكلم وان لم يسمعني احد ، وسوف اتكلم بجرأة ، لا اقيم وزنا للخوف . سأتنازل عن رغائبي واضحي بنفسي في سبيل مبدأي . سأبقى بين الشعب اضعف واحد فيه لانطيع غير الحق ، ولا نعترف الا بالواجب .

اني اقول كثيراً ولكن ماهمي ؟ فانا كاتب ، وبالكتابة ساعمل ، واني اعدك وعدا صادقا يا ابي ، انني سوف اسخر قلبي وعقلي وروحي وايماني وقلمي ، لابين الحقيقة التي تتخايل في رأسي والعاطفة التي تختلج في قلبي ، والغاية التي تثور في ضميري ... »!

فابتسم وقال متنهدا : « الان انا استطيع ان اموت فرحا مطمئنا ، اجل الان اقدر ان اذهب لملاقاة اخواني هادئا متأملا .. الان .. قد انقشعت عن عيني ظلمة الشك ، واشرقت شمس اليقين ، فلتتبارك السماء .

دعني الان امضي ياولدي ، فلم يبق من غاية لحياتي !! واذا ما مت ، فلا تقيما حول جثتي الضجة ، ولا تزعجا روحي بالبكاء فان الحزن الارضي الكاذب يؤلمني ! فكرا فيما سمعتماه مني ابق بينكما ما بقيتما ، وامشيا حسب مشيئتي تسعداني حتى في القبر .

احفرا لي حفيرا في هذا المكان وادفناني، ولا تقيما شيئا على قبري ، فان الشجرة التي تغرسانها عليه ، والبناء الذي تقيمانه فوق عظامي لن يحفظاني . فان وجودي بينكما بعد موتي هو فكرة تحفظانها لي في رأسيكما ، وذكري في قلبيكما .

اقتربا مني لاقبلكما . . اق . . ت . . ربا، رباه ! »

لم يكد ينتهي من هذه الكلمة المتقطعة، حتى اسلم الروح، فجزعت ايلين جزعا عظيما ، ودفنت رأسها في صدري بشدة ، اما انا فقد انتصبت امامي بغتة حقيقة الحياة ، وادركت بطلان الآمال التي تمايل في رؤوس البشر غير اني فهمت شيئا وقتئذ لا ازال افكر فيه الى الان . وهو ان القوي الذي يقضي حياته في الدفاع عن الحق ، يستخف بالموت ، ويهزأ من النصيب الذي ينتظره في الحياة الاخرى .

كنت محدقا في تلك الجثة المعروضة امامي ، مفكرا بسر تلك القوة التي كانت تحركها ، متأملا بهذه البقية التنة التي نهبها الارض بعد مماتنا . وكنت انظر الى ايلين ، واحس بالنيران التي تضرمها في قلبي واقول : « أتكون هذه العواطف الالهية الشديدة التي تقلقنا اليوم فانية بفناء الجسم ؟ وهل يستطيع الموت ان يقضي على آمالنا التي لا ترضى بامجاد الارض مهما سمت ، ولا تقنع الا بالالوهية .

وبعد ساعات تفكير مؤلم بللت فيها ايلين ثيابي بدموعها الغزيرة ، اقصيتها عني كالجندي الامين الذي يعرف واجبه ، وقدتها معي الى الخارج حيث ابتدأت بحفر الحفير حسب وصية الشيخ .

وقبل ان يطلع الصباح ، كنت احمل الجثة الى الحفرة وانزلها فيها رويداً رويداً ، وكل دقيقة أتوقف عن عملي لاذرف دمعة حرى فوق التراب الذي القيه ، وعندما انتهيت من عملي المضني الكئيب ، جلست فوق القبر صامتا مفكرا ، وقد شعرت بحقيقة الواجب الملقى على عاتقي .

دخلت المنزل ، فرأيت ايلين راكعة تصلي ، فحرت من عاطفة المرأة التي تدفعها دائما لطلب المجهول ناشدة ابدا امانيي غريبة ، تطلبها حينا في الحب ، وحينا في الدعارة ، آنا في الامانة والاخلاص ، وآنا في الخيانة ، وهي في جميع هذه الادوار لاتدرك مطلبها ، حتى تعرفه اخيراً في قساوة التضحية ومرارة العبادة .

وضعت يدي على رأسها برقة ، وقلت لها : « هيا ياصغيرتي فالفجر كاد ان يظهر . يجب ان تغادري هذا المكان ، ياايلين ، وانني افضل ان تذهبي الى بيروت للدخول الى المدرسة . لقد صرت راشدة يا اختي اما انا فوالله انني أفعل جهدي لاقوم بكل عمل تطلبينه مني ..

قالت لي باكية : « لاتتركني فانا لا استطيع ان اذهب وحدي ؛

ان لي قريبا في بيروت سوف يتولى قيادتي ، وقد خبرت انه ذاهب الى فرنسا فلنعجل بالذهاب الى بيروت قبل ان يغادرها .ولكن، عدني أنك لاتتركني ، وأنك تبقى في جانبي الى الابد !».

فكدت اقول لها: «أني أعدك »ولكن بالمرارة الحياة ! فلست ادري كيف لجم لساني كأن قوة خفية تمنعني عن النطق! كنت اهم أن اطوقها بذراعي ،واقول لها «انت كل آمالي في هذه الحياة» ولكن يالقساوة الاقدار ! فلست اعلم كيف جمدت في مكاني ، كأن قيوداً قوية تصد عني الحركة.

أجل لقد نسيت وقتئذ كل شيء الا الحقيقة الحاضرة .فاعدت اتذكر الا اني قد دفنت بطلا من ابطال الوطنية والحق والحرية قبل دقيقة ، وان المرأة التي تطلب مني الاخلاص، ليست هي سوي..افرنسية!!

لماذا فكرت في هذا ؟ — لست ادري ، ولكن ايلين كانت امامي بقامتها الحلوة ، ووجهها النقي وثغرها العذب ؛ ولكن ايلين كانت اللذة التي تنبه اشواقي ؛ والانعطاف الذي يجذب روحي ؛ولكن ايلين كانت كل امانى في الوجود فكيف تجرأت على ان لاأعدها ؟

قلت لها لاتخافي ياحبيبتي، فمالك ولهذه الافكار؟ هيا بنا لنترك هذا المكان ، فانا ذاهب لاحضار السيارة!

وقبل ان اضيف كلمة واحدة على قولي، ذهبت واحضرت السيارة فوجدت ايلين قد هيأت اغراضها ، ووقفت تنتظرنا ، ولم يكن في ذلك المنزل الوضيع ما يصعب حمله ، فنقلنا كل مافيه وتركناه غير آملين ان نرجع اليه ، وعندما صعدنا السيارة القينا نظرة اخيرة على ذلك البيت الذي جمعنا مدة وتركنا فيه اعز امانينا ، ولم نحول نظرنا عنه حتى كانت السيارة قد ابتعدت بنا .

وكنت افكر بايلين ، واقول كيف تستطيع ان تعيش في المستقبل اذا لم تجد قريبها ، حتى رأيتها قد فتحت حقيبتها واخرجت منها محفظة جلدية ضخمة ، ففتحتها وقالت لي بسرور : « انظر الى هذه الاوراق المالية ، فانها ستضمن سعادتنا ».

فلم اجب .

وقد وصلنا الى بيروت فنزلنا في فندق ، تركتني فيه ايلين لتذهب الى قريبها ، على ان تعود الي في صباح اليوم الثاني ، فلم اعارض ... ولم تنس ان تلاطفني قبل ان تذهب فما كنت لابتهج ، وكانت حرب طاحنة شديدة قائمة في قلبي .

وكأن تشرين لم يرق له ان يترك الجو صافيا في ذلك اليوم ، فبدأت الغيوم تسير في عرض الفضاء وتتلبد ، فلم تمض ساعة حتى كان المطر يتساقط

غزيرا ، والرعود تقصف في الفضاء منذرة الكون بمجيء الشتاء كما تنذر دقات الطبول الجيش بمجيء العدو .

وكانت ليلة عذاب وذكرى تلك الليلة التي قضيتها وحدي في الفندق. وكنت احسب نفسي كأني حييت حياة جديدة ، فنسيت الماضي الجهول الذي قضيته في الكآبة والظلمة ، انشد الحقيقة ، واود ان افهم غايتي من الوجود ؟

نعم ان ذلك اليوم العظيم في تاريخ حياتي قد اطلعني على اشياء ما كنت لاتصور يوما انني سأطلع عليها . وقد عانقت الحياة ذلك اليوم فصرت في دقيقة واحدة الرجل الذي انا هو الان . الرجل الحر الذي يود من صميمه ان يموت لخير الانسانية ويضحي بنفسه لصالح وطنه.

فيا شباب سوريا ايها الشباب الحي ، الماشي في طريق الحرية ، اتستطيع ان تقبلني بينك لنكبر هذه الخطوة الضعيفة التي خطوناها نحو المعرفة والحرية ، وهلا تقدر يوما ان نتكاتف ونتحد ونصرخ ونهدم كل هذه البنايات القائمة على جبال من الاوهام والظلم والخرافات ، لنقيم مكانها صروح المعرفة والعدل ؟

ان الحالة الضيقة التي نحن موجودون فيها الان لم تعد تحتمل ، افلا ترضون ان نتمرد كما فعل الشباب في كل امة متقدمة ناهضة اليوم ، ونجدد

لهذه البلاد الذليلة الجاهلة المغلوبة مجدها القديم، لا لنتشبه بالقدماء بل لنحفظ كياننا المتداعي، ونتحد جميعا مستظلين بظل العدل والحرية والساواة؟

قلت اننى قضيت تلك الليلة مجهدا، تعبا ثائرا، وقد فكرت بايلين

فرأيت ان هوة سحيقة تفصلني عنها. اجل! ان ايلين- حبيبتى وحياتي- كنت مجبرا على تركها لان القوة الجديدة الهائلة التي عشت في جسدي لم تكن ترحم وتشفق او تترك مجالا للعواطف.

ايلين افرنسية..؟! يكفي! انني سأتركها.. واذا كنت سأجد السعادة في قربها، فلا تنازل عن هنائي! ان قلبي لا يستطيع ان يرتكب هذا الجرم العظيم. اما اذا وجد بينكم اليوم من يهزأ بي، ويضحك مني، فليفعل ما شاء، فكفى انني قد اقدمت على امر عظيم امام نفسي يوقفني شديدا وقاسيا امام الحياة، وامام الحرية.

غادرت الفندق عند الصباح تاركا فيه هذه الورقة لايلين:

عزيزتي

انا يا اختي رجل ضعيف لا استحقك انت الافرنسية الجميلة الطاهرة الشريفة. اما ذلك العطف والاخلاص اللذين كنت تتلقينهما مني فلم تدفعني اليهما سوى عاطفة الاخوة.

وداعا يا ايلين ، فلا تحاولي ان تريني مرة اخرى..

. . .

لم تطق ايلين ان ترى الامل يفلت من يدها بهذه العجلة ، فلم يأت مساء ذلك اليوم الذي تركت فيه الفندق عند الصباح، حتى ادركتني في فندق آخر كنت قد صممت النية على ان اقضي فيه ليلتي ، فاترك بيروت في اليوم التالي .

وكانت العاصفة قد سكنت في الخارج كما تسكن قلوب الانبياء المضطهدين ، عند ما تبدد رياح الابدية عن افكارهم غيوم الارض، والطبيعة قد استعادت هدوءها الماضي ، كما تستعيد الامة المظلومة حقها المهضوم بعد ان تقاسي اهوال الموت ومرارة الاستعباد .

القت ايلين نظرة من وراء زجاج النافذة الى الخارج، وعادت تقول: «انها ليلة مظلمة تشبه ظلمة هذا القلب المغمور باليأس ، والمكفن بالهموم. ويا ليت فيه عاصفة جائحة ظلومة تقتلع اشجاره المجردة، وتقضي على بقية فصل يدعونه « ربيع الحياة » وادعوه « فصل الموت »!

واتبعت قولها بزفرة حرى اظهرت كل ما يجول بخاطرها، كما تظهر عظام الاسماك الملقاة على الشاطئ مخبأت البحيرة التي استقرت في قعرها التماسيح المعمرة.

انني لا ازال اذكر ، يا ايلين ، يوم نظرتك لاول مرة، فقد كنت جالسا مع الشيخ تأبها حزينا ، و كنت صارفا فكري عن كل شيء الا عن بؤسي وشقائي ، فرأيتني - وكأنني احزنتك - ورأيتك قد اقتربت مني بلطف وحنان ، تخاطبيني بلغتك الرقيقة ، وصوتك الناعم ، تسأليني عن سبب حزني وكآبتي .

انك ، يا ايلين ، جبلت باللطف ، وعجنت بالطهارة ، وما اظن ان الرقة والجمال قد تجليا في شيء كما تجليا في وجهك النقي ، ولا اعتقد ان اسرار السماء وعذوبتها قد كمنتا في شيء كما كمنتا وراء عينيك الساحرتين الناعمتين.

من انا يا حبيبتي حتى استحق عطفك وحبك ، وما النفع مني ؟ ولكن آه ، لقد نسيت : انني شاب عربي يا آنسة ، و بلادي محتاجة الي والى اخواني . ان قلبي الذي لا يستحق حبك ايتها الافرنسية ، سيتسلح بالخناجر ضدك . وذراعي الضعيفة ، ستحمل سلاح الحق في وجهك ؛ ان قيمة نفسي التي تبدو حقيرة امام عيني ، هي عظيمة في نظر بلادي ، والدماء التي اراها رخيصة هي ثمينة يحتاج اليها وطن الوليد الرشيد ؛ وصلاح الدين ، وفيصل العرب !

افهمتني يا ايلين ، وهل استطعت ان احضر اليك بهذه التعابير الضعيفة شيئا من افكاري التي تلهب رأسي ، وانقل اليك بهذه الالفاظ السقيمة صورة حقيقية عن عواطفي التي تملأ قلبي !

اما انت يا ايلين فماذا اقول لك ؟ لقد كنت كريما عندما اختارت مشيئة العلاء قلبينا من بين جميع القلوب ليتفاهما بالمحبة ، ويتعارفا بالطهر . وكنت شريفا ، وقت كانت عواطفي وحياتي مكرسة لاجل حبك ، اما اليوم وانا اعرض عنك ، فانني خائن ، لا استحق ان ادعي شيئا صالحا او عاطفة جميلة عالية لنفسي .

ولكن هذه الخيانة التي توقفني خجولا امامك مضطربا هي شرف لا يستحق ان يختلج به قلبي ، وقساوتي التي تجعلني اشمئز من نفسي اذ اقابل بينها وبين رقتك اللامتناهية ، هي انبل واحلى خلق يتردد في رؤوس اشرف الخلق واكملهم .

اتريدين ان تفهمي حقيقة عاطفتي ؟ — انني اكرهك لانك لا تستطيعين ان تعدي كلامي مبرراً لموقفي — انني ابغضك لانك تحسبين كلامي جنونا ليس له وزن ولا معنى — انني اتمنى ويلك وعذابك لانك لا تحسبين وجود ابناء بلادك هنا جرماً وفظاعة ...

آه ! ما اشد مرارتي ، وما اقسى وجودي !

ايلين ! تعالي الي ، انني بحاجة الى قلبك وحنانك ؟ اتستطيع بلادي ان تنزع حبك من قلبي لتضع مكانه حبها الجاني ؟ اتقدر هذه الارض التي ادعوها وطني ان تحطم سعادتي ، وتغتصب مني كأس الحياة لترميها

بعيداً ، وتتركني في ظمأي ؟ أأبلغ الشاطىء ، وعند ما اريد ان اضع رجلي على رماله الامينة ، تقذفني الموجة الجائرة الى عرض البحر ؟ » .

كنت اقول هذه الكلمات ، وهي تصغي الي وكانها لا تسمع ، وتحدق في وكانها لا تراني ، حتى حسبت انها لم تفهم اقوالي ، فذهب معناها ، ولم يبق منها غير تلك اللهجة الشديدة الغريبة التي كنت اخاطبها بها ، وكانني قد سحرتها فنسيت لومي ، وارتمت علي بشغف ومحبة .

فاقصيت ذلك الملاك الطاهر عني برفق ، وقلت لها بمحبة واشفاق : « لا تخافي يا ايلين ، فانني احبك ، واذا كنت مرغما على الافتراق عنك في هذه الارض ، فان ذكراك ستظل عالقة بفكري ، كما تتعلق روائح الزهور العطرية باذيال الربيع .

ان هذه الارض ليست بوطن حبنا الحقيقي ، يا ايلين ، لان المطامع والغايات والشهوات هي شبه غلاف كريه لهذه العاطفة الالهية التي ندعوها حباً ، فلا بأس ان نضحي باعز امانينا اليوم ، لنحصل على اعظم مايشتاقه القلب البشري في الغد .

انني احبك ، ولست اسأل نفسي عن مبلغ ثبات هذا الحب ، او وهمه . احبك ، واعلم ان الغد القريب سيبعدني عنك ويقصي محبتي عن قلبك ، فلا تعودين تسمعين غير كلمات الكره والبغض والثورة تخرج من

فمي . ستنظرين من شرفتك فتى متشرداً يقود جماعات من الفتيان المشردين ، حتى اذا مارآك اشار اليك بيده وصرخ : انظروا ابنة الظالمين » !

قلت هذا وقمت منصرفا .

فقالت لي : « الى اين ذاهب ؟ » .

قلت : الى الموت !!

الخاتمة

لقد اجبرتني الايام على المجيء الى حلب ، الى هذه المدينة المجيدة ، عروس الصحراء ، وحاملة صناعة وجهاد العرب ، وقد ذقت العذاب اشكالا والوانا ، ولكنني في جميع ادوار حياتي ، حتى في ساعات آلامي ومصائبي ، لم استسلم مرة الى القنوط ، ولم يعرف الخوف الى قلبي سبيلا .

ولكن قلبي قد تطور تطوراً عجيبا ، فانا اليوم ثائر ، انا اليوم متمرد ، انا اليوم اقدس الحرية ، ومهما تكن مشيئة المستقبل في ، فانا واحد في كل الحالات ! ولست بهذا القول امجد نفسي ، وامدحها اكثر مما تستحق ، فما هو الفخر لي اذا كنت كما يجب علي انا كون ؟

على انني الان ادرك انني لست سوى واحد من كثيرين ثائرين طالبين الحرية في سوريا . ولكن لا بد لي ان اوجه الى اخواني كلمة قصيرة اتمنى لو كنت اقدر ان انفخ فيها قوة الله وعظمته : « ايها الشباب ليس لك تقدم وليس لبلادك نجاح ، ولا تتم لك الوحدة الكاملة الشاملة الا بالجهاد والتضحية !

لقد اتتني من ايلين هذه الرسالة :

اخي وحبيبي

لماذا تركتني ، ياحبيبي ، وما الذي فعلته لاستحق هجرك ؟ الم احبك بكل جوارحي ، واعجن قلبي بماء محبتك ؟ ولكن ربما كنت تعرف مالا اعرفه ، فلتكن مشيئتك ياخي .

يقول لي الطبيب انني سأموت بعد قليل ، فما خوفي من الموت ؟ ان قلبي قد عاش يوما وقضى ، فاذكرني وخلد ذكري بالاناشيد ، وقل عني انني كنت بريئة .

انا ابنة مظلومة يا اخي . انا زهرة نبتت في الحقل قبل ان يأتي الربيع الحبيب فغمرني الثلج ، وطواني في اللحد . لكنني اموت مبتسمة عندما افكر انه لابد ان يأتي وقت تنتصر فيه المعرفة على الجهل ، والعدل على الاستبداد .

انا الان منطرحة على فراش الموت ، وكأن الحمى — هذه الزائرة اللطيفة — قد ادركت ظلمة مستقبلي ، فحملتني على يديها التلقيني في احضان المنية المنقذة .

قيل لي انك ذهبت الى بشراي — الى منزل الشيخ المهجور — فماذا رحت تصنع ياحبيبي ؟ ارحت تستعيد الايام الخالية ، وتتذكر

حبيبتك ايلين ؟ ـ ايلين المسكينة ! وكيف اتركك؟ بل كيف ستقضي بقية ايامك بعدي ؟. !

انا اعرف ، اعرف... انك ستجلس كل يوم عند المساء ، محدقا في الافق البعيد حيث توارت وراءه حواؤك . سشعطف على البائسين الذين كنت منهم ، وتتمرد على الظالمين الذين سيرونني في موكب الفنـاء .. سيصير لحبك رنة قدسية تتصاعد مع ضباب الفجر لتطلب « لايلينك » الرحمة والغفران ...

لتغفرلك السماء ، ياحبيبي ، ولتلازم ايامك السعادة ، فانا على الاقل قد فهمت، بعد ان تركتني ، انك محق في عاطفتك، وقدحفظت قول حكيم الارز : « اريد ان تقنعي بالتضحية اذا ما دعاك اليها الواجب».

فالوداع ...!

ايلين

نشيد

اجل ، يا ايلين ، سأذكرك ، بل ستكون ذكراك لي كما تكون الانهار الجارية للسهول القاحلة ، واسم الوطن للغريب المستوحش .

سأخرج للدنيا قلبا نبيلا ، وعواطف حرة ، اعرض على انظار الكون صور الشرف ، ورسوم الفضيلة . سأملئ قلبي من حكمة الاجيال ، وامسي قيثارة توقع الحانها ضمن القصور ، وفي الكهوف المنسية .

لقد مضيت يا ايلين ، ولم يبق على الارض من يذكرك سوى فتى جريح تردد اوديته السحرية صدى عمرك القصير ، وتنمو الكآبة في نفسه نمو الارز على جبال لبنان !

ولولا اثر ضئيل للايام الخالية في روحي ، لما امكنني ان اذكر منها شيئاً ! غير ان ايلين لا تزال واقفة امامي بقامتها الناعمة ، ويديها العاجيتين ، ونظراتها الكئيبة التي تشبه الشمس عند الغروب .

اني لا ازال اراها ، ولا يقهرني شيء مثل اني لا استطيع ان اوضحها

بالكلام ! ايلين العذبة النقية ايلين اخت المسرة ، وبنت الصفاء ، ايلين ذلك القلب الناصع بياضا ، والحلم الجميل الممتلىء راحة وعذوبة ، وكثيرا ما ظننتها كالاماني التي تتردد في رأس كل حي سائر تحت وجه الشمس!

كانت كازهار نيسان ، وكالينبوع يتدفق في مجاري الفكر ، وكضباب ايلول المتعالي الى رؤوس الجبال.

كانت كالخضرة للارض ، وكالبدر للجو ، وكالاستراحة للتعب ، فتود لو بقيت العمر امامك ، ولا تملها!

ولم يبق من ايلين غير آهة في صدري . ولم تخلف في نفسي غير ما يخلف الخريف وراءه : اوراق صفراء تظل متكدسة حتى تاتي عواصف الشتاء فتذريها في الفضاء الواسع !!

لم تترك في قرارة نفسي غير باقة من الزهور الذابلة ، ما نظرتها مرة حتى ارسلت الدموع واصعدت التأوهات ، ولم تضع في يميني من عواطفها المحبوبة غير سيف من التمرد ، ما هززته مرة حتى استصغرت الحياة ، واستحقرت العظائم .

انني اسمع اليوم اناشيد الحياة ، واطل فوق جبال الموت كما يطل البدر من وراء الافق على قتلى المعركة ، بعد ان تغلغت فيها الاشباح ، وخيمت عليها السكينة .

وفي وسط ترفعي الذي يشبه ترفع النبي الواقف على تلال الفكر ، ارى انك، يا ايلين، لاتزالين منتصبة امام فكري كما تنتصب شجرة السرو المورقة امام العاصفة الجائرة التي نست عطفها الماضي عند ما كانت نسيما لطيفا يلاعب باصابعه الرقيقة اوراقها اليانعة .

ان روحي التي صعدت الى اعالي الجو ، تهدء في عالمها النائي ، وترتاح لذكرك يا ايلين ، فلماذا لا اسير الى ايامك الخالية برغبة السائح ، لاجلس هنيهة وحيداً تحت شجرتك الوحيدة وابكي قليلا قبل ان يستدعيني نداء اصحابي الى الرجوع ؟؟ ...

ساذكرك يا ايلين ، ولو ان في روحي شيئا من الزهور لوضعته امام ذكراك ، كما تضع الابنة اليتيمة باقة الورود امام رسم امها المائتة ، ولو ان في قلبي نتفاً من الخلود لغمرت بها اسمك ، كما يغمر ظل الجبل الناتيء ، البقعة المنبسطة التي يضمها الى صدره في الليالي المقمرة . . .

نعم وسأمسح روحي بعبيرك ، فلا تصعد منها غير الروائح الزكية ، واطلق على كياني تيار حبك المحيي ، فلا يرى فيه الناس غير البطولة الحقة ، والحكمة التي تقصيها رياح الارض عن الارض ، فتضيع في دقائق الاثير ...

ايلين ... !

ايمكن لندائي ان يبدد الغيوم عن وجهك الرضي ، فتنظريني في غربتي مشرداً حزينا ، وفي افكاري متحرقا عظيما ، فتبسمين لي ابتسامة المؤاسي ، حتى انام مرتاحا نومة الطفل الموجوع ، عندما تطبق اجفانه المسهدة اغاني والدته الساهرة بقلق في القرب من مهده !

تمت

ان معنى موت الشعوب.. السكوت!

اضحكوا اما تشاؤون واشدوا الاغاني
لست والله ضاحكا ما حييت
ان ذل البلاد يحزن قلبي
فاذا صفق الانام بكيت
لم اكن باكيا لو ان بلادي
سعدت في الجهاد مهما شقيت
ان روحي بنت الدهور وقلبي
نافث من دمائه ما رويت
لا تقولوا كتابتي محض فن
فهي تحيي من مهجتي ما يموت
هي وحي الاجيال قد فرمني
شئته في كتابتي ام ابيت
انا احيا للعرب جد فخور
ببلادي وان بها قد بليت

وحدقت قليلا في ارض الغرفة ، كأنما ترى فيها اشباح القرون سائرة متجمهرة ، ثم رفعت رأسها وقالت لي : « احقيقة انت لم تكن تحبني وان هذا العطف الغريب الذي كنت اتلقاه منك ، هو مجرد حنان وشفقة ؟ انظر الى عيني ، الم تعودا توحيان اليك شيئاً ، والى ثغري الم يعد ينقل الى فكرك عذوبة السماء ؟ انظر » .

اما انا فكنت مشيحا بوجهي عنها ، وقد قامت افكاري بيني وبينها سدا منيعا ؛ فاقتربت مني بغضب ، وقالت لي بحدة : « انك لا تريد ان تنظر الي ، فافعل ما تريد ، ولكن لا تغتبط ، فانك سوف تندم . ان هذا القلب الذي لم يعرف الحب قبلك سوف يتحول الى غيرك ، وهذه الافكار التي لم تتخذ قبلك معبوداً سأصرفها عنك لكي لا يبقى منك شيء عالقا بفكري .

انا افرنسية شريفة ، فلا تتزوج ايها الاحمق العربي ان توقعني في شرك حبك ، حتى اذا تبين لك ضعفي ، تركتني وذهبت تفتش عن سواي ساخراً مني ومن عواطفي . أجل لا تأمل أن تلعب بقلبي ، فان ابنة فرنسا لن تسقط الى هذا الدرك السافل .

اراك تتألم ! ولكنك خداع ، فلا تحاول ان تغرني : ان حبي الطائر قد افلت من يدك ، وطار الى مكان مجهول ، فلم يعد ينفعك حرصك وانتباهك .

فقاطعتها قائلا : « ان هذه الجمل التي تنطقين بها هي مرعبة يا ايلين ، وهذا

التصريح الذي تقدفيني به كما يقذف البركان الثائر حممه الى السهول المجاورة هو ميت ، فمتى فكرت يا ايلين بهول هذه الكلمات ، ورميتني بها حانقة غاضبة ؟

انك لا تستطيعين ان تفهميني ، يا ايلين ؛ لكي ابين لك حقيقتي ، لان الاقدار التي اوجدتك افرنسية واوجدتني عربيا قد جعلت ستارا كثيفا على كلماتي ، فلا تستطيعين ان تفهمي معانيها . انك حرة يا ايلين لان بلادك قد انبتت فولتير وروسو ، اما انا فعبد ذليل ، لان السماء لم تشأ ان تفك يوما قيودي ، وتضعني حرا على طريق الحياة .

نعم ، يا ايلين ، ان هوة عظيمة تفصل ما بيني و بينك ، هوة حفرتها ايدي البشر منذ قرون ، ولا يزالون الى الان يعملون في توسيعها : ان قومك ايتها الافرنسية ، هم مغتصبو بلادي ، فكيف ابارك جلادينا ، وابسم لظالمي امي وابي واخوتي ؟

لقد احببتك يا ايلين ، قبل ان افهم ما يجره قومك علينا من الذل والاستعباد — احببتك عندما كنت لا ازال صبيا طاهرا ، لا يعرف الا الصلاح ، ولا يقر الا بالطهارة ، احببتك يوم كنت احسب الارض جنة والناس عليها ملائكة اطهارا ، اما اليوم .. واه ! اتركيني يا ايلين . . كفاني عذابا !

لا تلوموا فتى جفته الاماني
وجفاني الاحباب لما شعيت

انـني اعشق العروبـة عمري
فهي ديني صمت إما حكيت

لا تقولوا نسيت ماضي جهادي
لا وربي فانني مانسيت

انا احيا لمبدئي وجنوني
وعلى ما حييت سوف اموت

فاكسروا العود ان اردتم شكاة
لغرام او رددوا مـا شكيت

انا اشكو من المذلة لا من
حب ليـلى ولا نوى من هويـت

انا اشكو من ذل شعـب قوي
حسبوه على الخنوع يبيت

شاغبوا واصخبوا وموتوا كراماً
ان معنى موت الشعوب : السكوت!

ملاحظة !! ..

وقعت اغلاط مطبعية في هذا الكتاب لا يمكن ان يخلو منها
كتاب عربي مهما دقق المصحح ؛ اما الاسباب فتعود
الى احرف الطباعة العربية ذاتها! ومع هذا فلا يسعني
الا ان اشكر « مطبعة الاعتدال » التي
بذلت اقصى الجهد لابراز هذا الكتاب
بهذا الشكل ، فاقتضى التنويه!

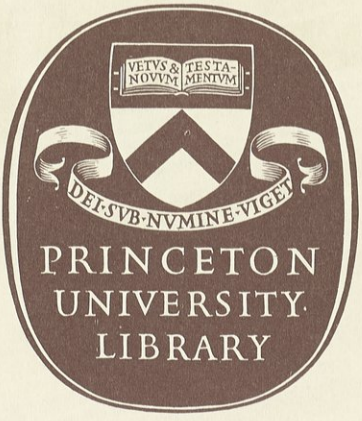
VETVS & NOVVM TESTAMENTVM
DEI·SVB·NVMINE·VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY

(NEC)
PJ7846
.A49465
T52